ماكسنس فرمين

الكمنجة السّوداء

رواية

@ketab_n
Follow Me
12.5.2017

ترجمها عن الفرنسيّة

أيف كادوري وحازم عبيدو

ماكسنس فرمين

الكمنجة السّوداء

روايـة

ترجمها عن الفرنسية

أيف كادوري

و

حازم عبيدو

مراجعة

كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

الطبعة الأولى 1436هـ / 2015م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة»

PQ2666.E6955 V5612 2015
Fermine, Maxence 1968-
[Le violon noir]
الكمنجة السوداء : رواية / تأليف ماكسنس فرمين ؛ ترجمة أيف كادوري، حازم عبيدو ؛ مراجعة كاظم جهاد. ـ ط. 1. ـ أبو ظبي : هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2015.
144 ص. ؛ 13 × 22 سم.
ترجمة كتاب : Le violon noir
تدمك : 978-9948-17-450-9
1- القصص الفرنسية- القرن 21.
أ- كادوري، أيف. ب- عبيدو، حازم. د- جهاد، كاظم. هـ- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

Maxence Fermine
Le violon noir
(Dessins de Georges Lemoine)
© Arléa, 2004

كلمة KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره. وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

الكمنجة السّوداء

Twitter: @ketab_n

تقديم

يسرد الكاتب الفرنسيّ ماكسنس فرمين Maxence Fermine (المولود في ألبيرفيل بفرنسا في 1968) في روايته الأولى والأكثر اشتهاراً، «ثلج» *Neige* (1999)، يسرد قصّة يوكو، صبيّ ياباني يذرع البلاد ليتعلّم كتابة الهايكو، فيهيم حبّاً ببياض الثلج ويخترق البلاد من شمالها إلى جنوبها في رحلة تلقينية يصف فيها الجبال ويسهر على بهلوانة تحتضر. وفي عرض هذا المسعى الشعريّ لبطل عمله، يقود قارئه في رحلة عبر تقاليد اليابان، ويزّج به في حوارات شائقة بين معلّم ومريد. وفي روايته «النّحال» *L'Apiculteur* (2000)، يرينا المغامرَ الفرنسيَّ أورليان روشفير وهو يصبح نحّالاً «بفعل شغفه بالذهب»، على حدّ تعبير المؤلّف في الأسطر الأولى من عمله. وذلك، يضيف الكاتب، «لا لأنّه كان محبّاً للثروة، ولا لأنّ جني العسل كان سيُثريه، بل لأنّه كان يبحث في كلّ شيء عمّا يدعوه، بهذه الصورة المتفرّدة، ذهب الحياة. كان يبحث عن الجَمال، وفي عُرفه

Twitter: @ketab_n

لا تستأهل الحياة أن تُعاش إلّا بفضل ما تتيحه من لحظاتِ سِحرٍ خالص». هكذا يقوده البحث حتّى الحبشة، وعندما يعود إلى فرنسا يعمل على تأسيس «مدينة النّحل». وفي «أفيون» *Opium* (2002)، يسرد قصّة شارل ستون، هذا الإنجليزيّ الذي يسافر إلى الصّين بحثاً عن الشاي فيكشتف العشق والأفيون. هكذا، من رواية إلى أُخرى، تتوالى حبكات وتجارب مكّنت فرمين من أن يحوز شهرة واسعة لا في فرنسا وحدها بل في ما يقرب من عشرين بلداً سواها، في إسبانيا وإيطاليا بخاصّة. وهي في حقيقة القول شهرة مفارِقة. فإنْ أنت أمعنت النظر في أسلوبه الأدبيّ وجدت أنّه يعرب بوضوح عمّا يقرب من أن يكون عزوفاً عن مكتسبات الرواية الحديثة، لا سيّما هذه المكتوبة في اللّغات الأوروبيّة، من تعقيدٍ للسّرد وتحديثٍ للّغة وبناء الشخصيّات، ومن تعفّف عن الإسراف في الشِّعر والإغواء بالمجازات. لكنّ هذا العزوف، المقصود بوضوح، هو على الأرجح ما يفسّر إقبال القارئ المتوسّط على هذه الأعمال، التي ما فتئ النقّاد يقابلونها بعدم اكتراث واضح، فلا يقيمون لصاحبها مكاناً بين كبار الكتّاب. ومهما يكن موقفنا من أسلوب فرمين، ينبغي أن نتساءل عن أسباب انتشاره هذا. وما لا يريد النقد الأدبيّ أن يعنى به قد يستدعي من سوسيولوجيا الأدب أو تاريخ الذائقة الأدبيّة أن يتأمّلاه ويحاولا تفسيره.

Twitter: @ketab_n

قد تشكّل الرواية المترجمة ههنا، وهي من أفضل أعمال فرمين، وإن لم تدانِ روايتَه الأولى «ثلج» (وقد نقلها إلى العربية المترجم السوريّ عبّود كاسوحة) في شهرتها، مناسبة فذّة لمقاربة هذه المسألة. فالرواية تتوسّل بلغة الحكاية، الواقعية والعجائبيّة طوراً فطوراً، وتختار لحظة تاريخيّة حافلة بالتوتّر، هي تلك التي بدأ فيها نابليون بونابارت حملته على إيطاليا. وبين عنف الحرب وآلام المنفى من جهة، ورهافة دواخل البطل وحساسيته الفنيّة من جهة أخرى، يقوم طباقٌ أو تعارضٌ أليم. وهذا كلّه يفاقمه هيام بالجمال، جمال المرأة وجمال الموسيقى، وشغف بالمطلق، ومحاولة لتطويع المادّة وجعلها تحاكي البشر في حبكة لن نلخّصها هنا حتّى لا نفسد تلقّيها. هكذا تجتمع عناصر تشكّل لشريحة واسعة من القرّاء المعاصرين خطوطَ انفلاتٍ وتغريبٍ سعيدٍ ومغرٍ هي بلا شكّ بحاجة إليه.

يُعيب بعضهم على هذا الكاتب ولعه بالصّوَر والمجازات المتعّمقة تارةً واليسيرة طوراً، وكونه يحمّل أغلب أعماله بحرارة التجربة وبتأويلها في آنٍ معاً، أو يشحنها بلغة السّرد وبالتعليق على السّرد. هذه الرغبة في اقتياد القارئ من يديه وجد الأدب الحديث ما يدعوه إلى تجاوزها منذ أزمان. بيد أنّ ما لا يمكن إنكاره هو أنّ هذه الكتابة التي تتوخّى السهولة دون أن تسقط في الاستسهال، وتسخّر الشِّعر دون أن تغمطه حقّه من الكثافة

Twitter: @ketab_n

دوماً، وتعلّق على مجريات الأحداث دون أن تجنح باستمرارٍ إلى التعليم والوعظ، لا تفتقر إلى مبرّرات الوجود ولا إلى حقّها في أن تُقرأ وتُـترجَم. ومن هنا مكانها في سلسلة ترجمة الأعمال الفرنسيّة هذه.

كاظم جهاد

باريس

Twitter: @ketab_n

«الموسيقى الحقيقية تكمن بين النغمات»

فولفغانغ أماديوس موتسارت

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأوّل

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(1)

بنزوعٍ غريبٍ للعقل يدنو أحياناً من حافّة الجنون، لم يكن لدى جوان كارلسكي سوى هدف وحيد في الوجود هو أن يحوّل حياته إلى موسيقى. بعبارة أخرى، كانت روحه مدوّنة موسيقية غير مكتملة يفكّ كلّ يوم سرّها بقدر أكبر من العبقريّة.

كان جوان كارلسكي عازف كمنجة. يعزف ببراعة مقطوعات موسيقية تصغي إليها الناس بافتتان ولكن لا أحد يسمعها حقّاً.

في عام 1795، في سنّ الحادية والثلاثين، وصل فنّه إلى مرحلة الاكتمال. وكان قد تبقّى له واحد وثلاثون عاماً ليعيشها.

كان يقيم في فرنسا، في المدينة التي ندعوها باريس والتي لم تكن مُجرّد مدينة، بل سيمفونية من الأصوات والأضواء.

كانت الناس تعرفه موسيقياً. لكنّه في حقيقة الأمر كان أكثر من ذلك. كان جوان كارلسكي عبقريّاً بسموّ شبه إلهيّ. كان يطمح، في سرّه، إلى تأليف أوبرا عظيمة يريد لرفعتها أن تخاطب السّماء وتكلّم الله.

Twitter: @ketab_n

(2)

لكي تصبح عازف كمنجة مبدعاً، ينبغي أن تمتلك ميزتين: أن تجيد الإصغاء، وأن تجيد الاستماع.

وكان جوان يمتلك الميزتين. كان يعرف الإصغاء لآلته. ويجيد أيضاً الاستماع إلى اهتزازاتها داخل روحه.

كلّ يوم، من الفجر حتّى مغيب الشمس، كان يكرّس نفسه لفنّه. ومن فرط شغفه بالعزف كان يبقي عينيه مغمضتين أحياناً طوال النهار، وهو يصغي لمشاعره. غارقاً في نفسه وفي الموسيقى، كان مع ذلك يرى الدنيا بأعمق من أيّ شخص آخر لأنّ قلبه كان مفتوحاً للضوء.

Twitter: @ketab_n

(3)

هو لقاء بالمصادفة منح جوان كارلسكي، يوم كان بعمر الخمس سنوات، عشق الكمنجة وقرّر له بقيّة حياته.

ذات صباح صيفيّ، في حديقة التويلري، أدخله عازف كمنجة غجريّ إلى لغة السعادة.

كان جوان يلعب على مقربة من بركة الماء حين ظهر رجل بلحية وشعر أسودين عند منعطف الممشى. ودون أن ينطق الغريب بكلمة، وقف وسط الطريق وأخرج كمنجة من صندوقها. ولطول قامته بدت الكمنجة بين يديه مثل لعبة. أُخِذ بعض المتسكّعين بمظهر الغجريّ، فتجمهروا حوله بسرعة. مفتوناً، اقترب جوان أيضاً.

عزف الغجريّ، وهو يضبط الإيقاع بقدمه، لحناً جذّاباً، جعل الفتى مذهولاً، وهو يتفحّص الموسيقيّ الجوّال كأنّه أمام رؤية. ظلّ جوان جامداً لفترة طويلة، مسحوراً بالموسيقى التي كان يسمعها للمرّة الأولى.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ربما لم يكن الغجريّ عازف كمنجة ممتازاً، بالتأكيد هو لم يكن يجيد العزف إلّا سماعياً، لكنّه كان يمتلك روحاً عاتية لشدّتها تبدو النغمات التي يستنطقها من الآلة قادمة من قلبه. نتلمّس في أنينها صوت الموسيقيّ، مع عذابات كلّ غجر العالم، وصرخات سعادتهم وفرحهم. وكان جوان يعرف ذلك. كان يسمعه أكثر من أيّ شخص آخر. كان يفهم صوت الكمنجة.

والغجريّ أدرك ذلك أيضاً، كما أدرك أنّ جوان ينتمي إلى فئته من البشر: الأنفس المخلوقة للموسيقى. نظر إلى الطفل وبدأ يعزف من أجله معزوفة بولونية راقصة، مفعمة بالغنائيّة والجمال، بألحانٍ غريبة وحدهم المطّلعون يمكنهم فهمها. عرف جوان أنّ هذه اللغة كانت لغته، اللّغة الوحيدة التي يتقنها، والوحيدة التي ستربطه للأبد بهذا العالم. وهو يستمع، فهمَ الرسالة. لم يكن الغجريّ يعزف قطعة موسيقية بسيطة، كان يحكي حياته. فأطبق الطفل جفنيه، وترك نفسه تحلّق مع أحلامه المتيقّظة.

رأى طرق بوهيميا وأشجار التنّوب يغطيها الثلج، السهرات قرب النار ورقصات النساء. عرف الترحّل من قرية إلى أخرى، الأوجاع والحرمان، الشتائم والبرد، الجوع والوحدة. كما أدرك عزاء الباب الذي يُفتَح ودفء المنزل، الابتسامات المتبادلة وكرم القرويّين، الموسيقى التي تدفئ القلوب والضحكات، وأحياناً

Twitter: @ketab_n

الحبّ أيضاً.

رأى جوان كلّ هذا. وقد بدا واضحاً في عينيه.

حين أنهى الغجريّ العزف، مدّ قصعة ليجني بعض القطع النقدية. أربع مرّات أو خمساً صدحتْ رنّة الفضة في الكوب الحديديّ. وحين اقترب من الطفل، جثا على ركبتيه، وبحركة رقيقة داعب شعره.

– أنت، أيها الصغير، منحتَني أكثر منهم جميعاً بدفء عينيك.

ورحل كما جاء.

منذ ذلك اليوم، أدرك جوان أنّه موسيقيّ.

بعد ذلك بسنتين، أصبح عازف كمنجة.

Twitter: @ketab_n

(4)

لم يكن لجوان معلّم بالمعنى الدقيق للكلمة، غير أنّ بعض المعلّمين بدؤوا يعطونه بعض الدروس على الآلة. ومبكّراً جدّاً بدأ العزف بمفرده، وغالباً دون نوتة موسيقية، ببساطة من أجل المتعة. لم يكن الطفل تلميذاً كالآخرين. كان يقلّد معلّميه، ويأخذ عنهم فنّهم، ولكنّه في قرارة ذاته كان عازف كمنجة محترفاً. لم يكن يعزف بيديه وإنّما بقلبه.

بسرعة كبيرة، فهم أساتذته أنْ ليس لديهم ما يعلّمونه إيّاه.

– لا داعي لمتابعة هذه الدروس، قال أحدهم لوالدة جوان. لا أستطيع أن أُعلّم هذا الطفل ما يعرفه.

لم تكن مدام كارلسكي تفهم شيئاً في الموسيقى، غير أنها صدّقت الموسيقيّ. وبما أنّها كانت قد فقدت للتّو الزوج والثروة، قرّرت أن تعوّض بعضَ ما خسرت.

وهكذا قدّم جوان كارلسكي بعمر السبع سنوات أولى حفلاته الموسيقية، في كنيسة سان لويس أون ليل، في باريس.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كانت الكنيسة غاصّة بالملأ في ذلك المساء. وقد انتشرت الإشاعة مثل النار في الهشيم وكلّ الناس تريد أن تسمع الطفل الذي ضاهى معلّميه.

في البداية عزفت الأوركسترا سيمفونية، ثمّ أتى بعد ذلك دور جوان. حين ظهر بلباس السهرة، وشعره الأسود الطويل مرخى على كتفيه، وعيناه الزرقاوان الواسعتان زائغتان في أحلامهما، سرى همس بين الحضور. كان يمكن قراءة الذهول على عدد من الوجوه: يبدو شديد الشفافية، إلى حدّ التلاشي. أيّة موسيقى كان من الممكن أن يقدّمها طفل بمثل هذا الصّغَر؟

تقدّم جوان، وكمنجته بيده، بخطوات خجولة واعتلى المنصّة. أسند الآلة بين كتفه وذقنه وبدأ العزف. من أوّل النغمات أدرك الجمهور أنّه ليس أمام عازف كمنجة عاديّ.

فيما يعزف، أسدل الطفل جفنيه وبدأ الرقص. كلّ حركة من أصابعه على زند الكمنجة، كلّ انزلاقة للقوس، كلّ تمايل للجسد كان يحرّر طاقة في داخله. لم يكن جوان وكمنجته إلّا واحداً. كانت النغمات تتطاير من الآلة، صافية، بلّورية، وتتلاشى في الأثير. سحرَ الفتى البارع جمهوره بمهارته الفذّة، فسَرت بين الحضور رعشة. لم تستغرق إلّا بضع دقائق، ولكن في أثنائها تشبّع الهواء بالمشاعر. وبقي كذلك حتّى النغمة الأخيرة.

حين انتهى من العزف، خيّم صمت كبير. ثمّ ما لبث أن

Twitter: @ketab_n

حصل انفجار من الفرح وعلا تصفيق الجمهور.

بعد انتهاء الحفل، أتوا يهنّئون الفتى عازف الكمنجة. ولحسن الحظّ، كان يمكن، بين أشدّ المتحمّسين، تمييز بضعة فنّانين معروفين. أحدهم كان شديد التأثّر بموهبة الفتى المعجزة، فعرض فوراً على مدام كارلسكي أن يرعى عمل ابنها. تظاهرت الأمّ في البداية بالرفض، تردّدت وحاولت أن ترفع المساومة، وأخيراً وافقت كأنّما على مضض.

منذ ذلك الحين، راحت الحفلات الموسيقية تتلاحق بإيقاع جامح وبنجاح متوهّج.

بعد أشهر قليلة، بدأ يدور على كلّ الألسنة، داخل الصالونات الباريسية، سؤال:

– من أين أتى هذا الطفل الإلهيّ العزف؟

من كان هذا الفتى المعجزة؟ من هو جوان كارلسكي؟

لم تعد فرنسا تكفي لاحتواء موهبته. دعي إلى فيينا، وإلى مدريد، وإلى كلّ البلاطات الأوروبية. اكتشف الطفل أوروبا، بمرافقة أمّه التي كانت تتبعه كظلّه.

كانت انكلترا من أوائل البلدان التي احتفت به وأقامت له استقبالاً عظيماً. وبدت الموسيقى وهي تجتاز الحدود، وكأنّها تُنسي رهانات السياسة. ومن فرط ما حظي به أداؤه من شهرة، اضطرّ في لندن إلى إقامة سبع حفلات بصالات ممتلئة.

Twitter: @ketab_n

وأثناء عشاء أقيم على شرف جوان، أسرّت إحدى السيدات إلى مدام كارلسكي:

- أبسط ما يقال هو أنّ ابنك مذهل. من المؤكد أنّ أصدقاءه يفخرون به.

شكرتها مدام كارلسكي على الإطراء، وجاملتها بابتسامة، ثمّ أجابتها:

- في حدود معرفتي، جوان ليس لديه أصدقاء.

أبدت السيدة استغرابها الشديد:

- ليس لديه أصدقاء، وهو في هذا العمر؟

- لا. اسأليه، وسترين.

التفتت الإنكليزية إلى الطفل الذي كان يبدو عليه الضجر بوضوح شديد وهو بصحبة أحد اللوردات الشبّان وسألته:

- يا صغيري، من هو أعزّ أصدقائك؟

أجاب جوان دون أي تردّد:

- كمنجتي.

وفي كلّ مساء، بعد الحفلة، كان جوان يرجع إلى وحدته، وحدة الطفل. ولم يشعر يوماً بأنّه وحيد إلى هذه الدرجة إلّا حين أصبح معروفاً لدى الجميع.

Twitter: @ketab_n

(5)

استمرّت هذه الحياة عشر سنوات مكلّلة بالنجاحات. حتّى موت مدام كارلسكي. بفقدان أمّه، خسر جوان الخيط الذي كان يصله بالعالم. ممّا ولّد حزناً عميقاً لم يغب عنه قطّ فيما بعد.

سئم جوان أن يكون أحد القردة المدرّبة التي تقوم باستعراضاتها في بلاطات أوروبا، فقرّر أن يوقف رحلاته كي يستقرّ في باريس، حيث كان يحيي حفلات نادرة لصالح أعمال خيرية. كان قد بلغ سبعة عشر عاماً، وكان ما زال يعزف بطريقة رائعة، غير أنّ هذا لم يعد إعجازاً.

بسرعة كبيرة طوى النسيان الطفل الذي كان يبهر الأمراء. كانت تلك أزمنة مضطربة، والحكم كان يتأرجح. والناس ينقصها الخبز، وسرعان ما فقدت اهتمامها بالموسيقى.

مرّت السنوات.

اضطرّ جوان كي يعيش إلى تعليم الموسيقى لبضعة فتيان. وكي يعطي هدفاً لحياته، بدأ بالتأليف.

Twitter: @ketab_n

ذلك أنّه بات يريد أن يكرّس جماع نفسه لشغفه الحقيقيّ، ألا وهو تأليف عمل أوبراليّ.

Twitter: @ketab_n

(6)

لكن لم تُتَح لجوان كارلسكي فرصة اختيار حياته. فالحرب قرّرت بالنيابة عنه في أوّل أيّام ربيع 1796.

كان قد بلغ للتوّ واحداً وثلاثين عاماً.

في مونمارتر، حيث كان يسكن في سقيفة آنذاك، في أحد صباحات شهر مارس، استلم ورقة التحاقه بالجيش. كان ثلج متأخّر يهطل، صامتاً، على الساحة. وبدا الوقت وكأنّه قد توقّف عن الجري.

صعد ساعي البريد طوابق المبنى الستّة وظهر لاهثاً أمام باب الموسيقيّ. وكما لو على مضضٍ طرَقَه. أتى جوان ليفتح له، ومن نظرة الرجل فهمَ أنه يحمل أخباراً سيئة.

– أظنّ أنّ فرنسا تنتظرك، قال له موظّف البريد.

مدّ له الرسالة بيد مرتجفة. جابه جوان نظرته، وأخذ الظرف وفضّه.

وعلى الفور قرأ، فاصفرّ، ثمّ رفع عينيه وقال:

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

– أنت على حقّ. هي بحاجة لي. ولكن ما بمقدوري أن أقدّم لها غير حياتي؟

ابتسم ساعي البريد ابتسامة عزاء، لمس جوان فيها شيئاً من الشفقة ممّا أشعره بحرَج غير مفهوم.

بعد وقت قصير نزل إلى المقهى، حيث التقى مجنّدين آخرين، كان بعضهم متلهّفاً للالتحاق بالجنرال الشابّ الذي كان في الثامنة والعشرين من عمره، والذي كان باراس قد كلّفه بقيادة حملة إيطاليا. شربوا معاً كأساً من الأفسنتين، ثمّ كأسين، فثلاث كؤوس، وهم يحملقون بنهدَي السيّدة صاحبة المقهى، التي بدأت أخيراً تنظر إليهم كرجال.

– نخب بونابرت!

– نخب بونابرت!

– نخب جيشنا الذاهب إلى إيطاليا!

لم يرفع جوان نخباً. اكتفى بالشراب، ثمّ حيّا الجميع وصعد إلى مسكنه.

في غرفته، حدّق مطولاً ببضعة أشياء ورثها عن أمّه، حاول لملمة ذكرياته، ثمّ، بحزن كبير، تمدّد على السرير محطّماً من الكحول والأسى ثمّ نام.

Twitter: @ketab_n

لم يستيقظ إلّا في عصر اليوم التالي. رأى من النافذة المساء يهبط على باريس والمدينة تضاء تدريجياً. بدا كلّ شيء هادئاً.

فأخرج كمنجته من صندوقها، ودهن القوس براتينج القلفونيّة وبدأ العزف. فأعادته الموسيقى بسِحرها إلى أمجادِ ماضيه.

فهمَ أنّ حياته انتهت. وأنّ الحرب لن تترك له فرصة ليحقّق شغفه. لن يؤلّف يوماً الأوبرا التي كان يحلم بها.

كان له واحد وثلاثون عاماً، وأحلام ومشاريع. وقرّرت الحرب للتّو نيابة عنه.

Twitter: @ketab_n

(7)

في مدينة نيس، حيث كان بونابرت يحشد جيشه، ودّع كارلسكي الموسيقى، والشهرة، والنجاح. في زمن الاضطرابات ذاك، ولفترة طويلة، كان فنّه قد نأى به عن الحرب. هذه المرّة، لم يعد بمقدوره تفاديها.

ستكون هذه الحرب مسيراً إجبارياً إلى فيينا. ممّا بات يقتضي الالتفاف حول جبال الألب.

تحرّك الجيش في 2 أبريل 1796 صباحاً. كانت حملة إيطاليا قد بدأت.

ليس من الممكن أن يكون اختيار إيطاليا محض صدفة.

ففي هذا البلد ولدت الأوبرا. والإيطالية، هذه اللغة الرخيمة العذبة، هي التي بإمكانها التعبير أكثر من أيّة لغة أخرى عن جمال الغناء. كان جوان يفكر بفرح مشوب بالحزن.

– يا للحظّ السعيد في أن يستطيع المرء العيش في مكان كهذا!

Twitter: @ketab_n

لكنه لم يكن ذاهباً إلى إيطاليا ليعيش فيها، وإنّما ليموت فيها. موسيقى من نوع آخر كانت تنتظره هناك. «مارش» عسكريّ مكوّن من صخب القذائف، ومن الدم والموت.

Twitter: @ketab_n

(8)

هكذا إذن هي الحرب؟ المذبحة التي لا تتوقّف، أولئك الجرحى والموتى من حوله، وطعم الدم والطين في الفم؟ أولئك الجنود بثيابهم الممزّقة، وروائحهم الكريهة وقذارتهم، بلا خبز، وبلا روح؟ هذا الضجيج المدوّي الذي كان يمزّق غشاء طبلتي أذنيه حتّى يجعله يصرخ من الألم؟

أين أصبحت الموسيقى التي كانت تهدهد الحياة على نغمات كمنجته؟ الحرب لم تكن إذن إلّا هذا الفم الشره الذي لا يشبع؟

لم تدم حربه أكثر من أربعة عشر يوماً. ففي 16 أبريل، في الساعات الأولى من معركة مونتي نوتي، جُرح جوان بطريقة فظيعة. ففيما هو يهجم في الصفّ الأوّل، خرق فارس نمساويّ بنصل سيفه جانبه الأيمن. وأصيب المهاجم برصاص طائش فأفلت سلاحه الذي بقي مغروزاً في جسد جوان، ثمّ، وهو متشبّث بالجنديّ الفرنسيّ، صوّب نظرة المحتضر إلى عينَي من كان قد طعنَه للتوّ. صدرت عنه حشرجة غير إنسانية، وببطءٍ

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سقط على الأرض. وانهار جوان بدوره وهو يغيب عن الوعي.

انتهت المعركة بعد قليل، وأخلى ضجيج الأسلحة مكانه للصمت.

كان الليل قد حلّ حين استعاد جوان وعيه. الضباب يُغرق ساحة المعركة مفسحاً للقمر بين حين وآخر أن يرسم حوله ظلالاً مقلقة. تمنّى جوان النهوض لكنّ ألماً مهولاً كان يمزق أحشاءه. السيف كان لا يزال هناك، يخترقه حتّى جهته الأخرى، ومقبضه يتأرجح طالعاً من بطنه مثل صليب وُضع على عجل فوق جسم مسجّى. كلّ حركة، كلّ تأرجح كان يغرز النصل أكثر قليلاً في الجرح. البرد القارس أدّى إلى تخثّر منعَ الجرح من النزف. لكن تكفي حركة عنيفة قليلاً لينفتح الجرح من جديد وينزف الجسد دمه كلّه.

كان جوان يعرف أنّ ساعته الأخيرة قد حلّت. كان من المفترض أن يستسلم. تأمل للمرّة الأخيرة ذلك العالم الفظيع حيث يتراقص حوله الأموات. النمساويّ كان هناك، يده مفتوحة بشكل يائس على سلاح لم يعد يمسكه، وعلى وجهه ظلُّ ابتسامة تبدو كأنّها تسخر من الموت.

وعلى يمينه، كان فارس مبقور البطن مرميّاً على صخرة، وعلى مسافة بضع خطوات كان فرسه ملقىً على جنبه صريعاً، ولا تزال فتحتا أنفه رطبتين من جرْيه الجنونيّ. أبعد بقليل، كان

Twitter: @ketab_n

غصن شجرة يمسك بجنديّ من المشاة شطرتْه ضربة مدفع شطرين اثنين. كان ذلك ديكوراً من الرماد والدخان، من عربات مفكّكة، وأسلحة مهجورة، وأجساد ممزّقة إرباً.

من بعيد، كان ناقلو الجرحى يبحثون عن جرحى لإخلائهم. غير أنّ أغلب الرجال الذين كانوا مستلقين على الأرض ما كانوا ليصحوا من جديد.

رأى جوان ناقلي الجرحى يمرّون قريباً منه على بعد خطوات. حاول مناداتهم لكن لم يخرج من فمه صوت. كان من فرط جفاف حنجرته يحسّ بأن لسانه أشبه ما يكون بحجر قاسٍ، مغسول بالدم.

ابتعد ناقلو الجرحى وخيّم الصمت ثانيةً.

نظر جوان إلى القمر للمرّة الأخيرة، ورأى مقبض السيف يلمع فوق بطنه، ثمّ أطبق جفنيه.

فجأة سمع في الهواء حفيفاً يشبه قطعة قماش في الريح. هل هو النسيم ما كان يرفع سترة رامي القنابل المستلقي إلى جانبه؟ هل هي في تلك اللحظة شهقة الموت؟

أعاد فتح عينيه.

كانت امرأة تنظر إليه. فارسة ترتدي عباءة طويلة سوداء. تقف، جامدة، ممسكة بلجام مهرة سوداء. أحسّ جوان بأنّ الغريبة تتفحّصه بإصرار. عيناها كانتا تضيئان في الظلمة

Twitter: @ketab_n

كشعلتين ذهبيّتين.

كيف استطاعت الوصول إليه بلا صخب، خلا ذلك الرفيف الذي كشف عن وجودها وجعلها حقيقيّة؟ أدرك جوان أنّ شيئاً غريباً كان يصدر عن تلك المرأة.

لم تكن الفارسة تتحرّك. بدا أنها تتأمّل الرجل الذي كان يحتضر.

سرت قشعريرة في جسد جوان، لكنه أدرك أنّه قد فات أوان الخوف.

ربطت الغريبة مطيّتها بشجرة، ثمّ أخذت مطرة، واقتربت من الجريح، ورفعت رأسه ليشرب.

ثمّ، في ذلك الديكور المأخوذ من نهاية العالم، وفي لحظة القلق والاحتضار تلك بدأت المرأة بالغناء. كان غناؤها ساحراً بصفائه، حتّى أنّ جوان نسي جراحه. غنت مطوّلاً، ربما الليل بطوله، لأجله فقط.

وأخيراً حين صمتت، قبّلته. في اللحظة التي تلامست فيها شفتاهما، عاد جوان إلى دنيا الأحلام.

Twitter: @ketab_n

(9)

حين استيقظ جوان من جديد، كان رئيس الأطباء في قيادة الجيش يضمّد جراحه، وينفخ في وجهه رائحة الثوم والتبغ البارد.

كان الطبيب يكلّم ضابطاً وجهه مضاء بمصباح نفطيّ.

– أخبرني، أيها الطبيب، هل نجا هذا الرجل؟

– انتهت الحرب بالنسبة له، سيّدي الجنرال. سيكون بطلاً... لأنه سيموت قبل الغد.

أمسك جوان بيد الطبيب، وبآخر قواه، همس بهذه الكلمات:

– أريد أن أموت حالاً! أنا أتألم جدّاً! لا تتركوني هكذا!

أخذ الطبيب يده وحاول تهدئته:

– لا تبدّد قواك. هذا لا يفيدك. ستموت على أيّة حال، أقسم لك بذلك.

– لا أريد أن أستيقظ من جديد. اسمعني، قل للجنرال إنّي ما عدت أريد القتال. قل لبونابرت إنني قد متّ!

Twitter: @ketab_n

مسح رئيس الأطباء جبين جوان ثمّ رفع رأسه والتفت للضابط الذي يقف إلى جانبه. كان الرجاء واضحاً في نظرته.

- سيّدي الجنرال، أرجوك قل له شيئاً ما.

بنظرة باردة، قال الضابط للجريح:

- تشجّع! يجب أن يكون لديك شجاعة! أمام العدوّ كما أمام الموت!

لكنّ جوان كان قد فقد وعيه. ولم يسمع ما قاله بونابرت.

Twitter: @ketab_n

(10)

لم يصبح جوان كارلسكي بطلاً. لم يمت.

في اليوم الثاني، استعاد وعيه، وفي اليوم الثالث كان قد نجا.

ترك الجبهة وانضمّ إلى الجرحى في مؤخّرة الجيش. بقي لبضعة أشهر، في نقاهة، يستعيد عافيته شيئاً فشيئاً. مضت أشهر دون أن يكون هناك شيء سوى انتظار شفاءِ جرحٍ قد لا يلتئم في قلبه بالكامل أبداً.

كانت حملة إيطاليا تسير بسرعة. والمعارك تتلاحق والعدوّ يسجل خسارات فادحة. كان ينبغي مواصلة التقدّم داخل الأراضي. المستشفى يغصّ كلّ يوم بعدد الجرحى. ومن بعيد كان يسمع صراخ رماة القنابل.

من حين لآخر، في المساء، كان جوان يحمل كمنجته ليعزف لرفاقه. خصوصاً للجرحى والمحتضرين. كان القسّ يطلب عونه أحياناً للتخفيف عن شخص ينازع. كان الحزن آنئذٍ عميقاً فلا تكاد تستطيع الموسيقى الترويح عنه.

Twitter: @ketab_n

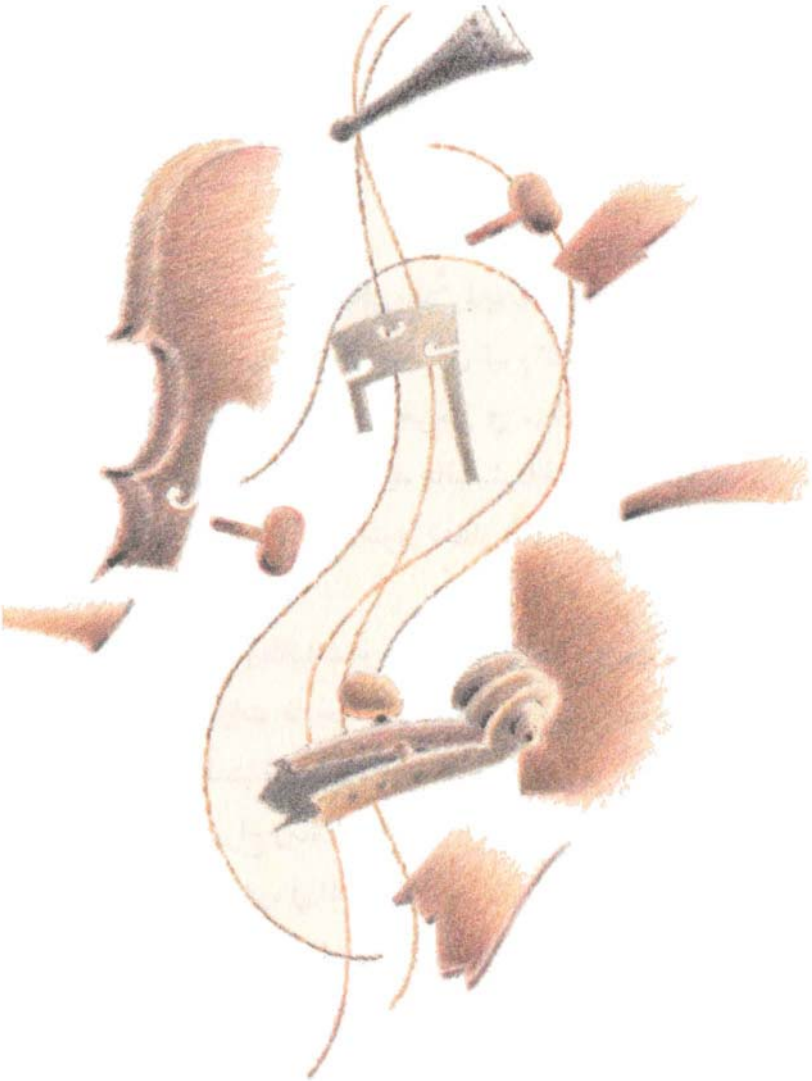

Twitter: @ketab_n

بعد فترة قصيرة، قرّر أن يرافق ناقلي الجرحى إلى ساحة المعركة. وعلى قمة تلّ، راح يعزف للجرحى على ضوء القمر، تغريه فكرة أنّه حتّى الموتى يستطيعون سماعه.

حين شفي من جرحه، عاد للالتحاق بوحدته العسكرية. عاد والتقى عالم الأحياء، عالم الرجال الأقوياء الأصحّاء، المجبول أغلبهم من فولاذ مسقيّ. الرجال الذي جعلتهم ويلات الحرب بلا إحساس.

في أوّل مساء، تحت الخيمة، أخذ كمنجته وبدأ العزف. رمقه زملاؤه بنظرات صاعقة. بالنسبة إليهم كانت الحرب تطلق نغمة مختلفة كلّياً، وفي قلوبهم التي اعتادت على أزيز الرصاص وغضب القتال لم يكن ثمة مكان للرقّة.

- أوقفْ هذا الشيء! قال أحدهم. ستبكينا بهذه الموسيقى. الأحرى أن تنفخ لنا بالبوق!

بقي القوس معلّقاً في الهواء، ثمّ سقط على الأوتار خانقاً رنينها. ودون أيّة كلمة، ذهب كارلسكي وتمدّد على فراشه.

في اليوم التالي، ساعة الاستيقاظ، وجد جوان كمنجته محطّمة أسفل السرير. لن يكتشف أبداً من فعل ذلك.

لم يكلّم أحداً بهذا الشّأن، ولم يسعَ لإيجاد مرتكب هذه الجريمة.

كان يعرف أنّ الحرب ستحطّمه، هو أيضاً، كما فعلت بكمنجته.

Twitter: @ketab_n

(11)

حين دخل الجيش الفرنسي البندقية، في 16 مايو 1797، بدا كأنّ المدينة قد أطبق عليها الصمت. النهب والسّلب، وضجيج الرجال وغضبهم، هذا كلّه أصيب بالجمود بباعثٍ من جمال المدينة وسكونها. أوّل ما فاجأ جوان هو الهدوء الذي ينبعث من كلّ شارع من شوارعها، هذا السلام الذي لم ينعم به منذ أشهر طويلة.

بقيت جمهورية البندقية خلال أحد عشر قرناً تقاوم غزوات البرابرة، وبفضل قواتها البحرية فرضت سيطرتها حتّى على الشرق. غير أنّها فجأةً مُحيتْ من خريطة أوروبا. وها أنّ مسلّحين غرباء يريدون الاستيلاء عليها.

– البندقية، قال كارلسكي وهو يخاطب رئيس الأطباء، ليست مدينة؛ إنها حلم حطّ على شاطئ البحر.

لأوّل مرّة منذ إصابته تجلب الحرب له شيئاً من الفرح. فرح

Twitter: @ketab_n

دخوله منتصراً إلى مدينة أحلامه.

كلّ هذه العجائب الطالعة من عمق العصور، هذا الذهب، وهذه التحف المهداة إلى نظر هؤلاء الرجال القذرين، بروائحهم الكريهة، المرهقين من التعب، لم تكن لهم بالتأكيد إلّا ثمرة حلم.

بعدما سمع جوان هدوء المدينة صرخ:

– هذه هي المدينة التي أتمنّاها!

كان مخطئاً في الحقيقة. لكنه لم يكن يعلم بذلك. كانت البندقية سفينة رائعة. غير أنّ الماء كان يتسّرب إليها من كلّ الأمكنة.

البندقية جميلة. طافحة بالذهب، بالمجوهرات واللوحات، بالقصور، والصمت والماء. بعد بضعة أيّام كان الجيش العظيم قد استولى على الذهب، والمجوهرات واللوحات. احتلَّ القصور وكسر الصمت. وأكمل بعد ذلك تقدّمه على باقي أوروبا. بونابرت، على الطريق باتّجاه فيينا، لم يكن يريد إطالة مكوثه في البندقية. كان يعرف ما كلّفت هنبعل إقامة كتائبه في كابو.

رفع الجيشُ مخيّماته وترك ضواحي المدينة. مع إبقاء بعض الرّجال للاحتلال.

وكان جوان كارلسكي الذي أصيب في المعركة أحد هؤلاء.

سيبقى ستّة أشهر في أكثر مدن العالم صمتاً. المكان المثاليّ ليعاود ملاقاة الموسيقى. المكان المبارك لكتابة أوبراه.

Twitter: @ketab_n

(12)

أسكنه أحدهم عند رجل عجوز يمتلك منزلاً فسيحاً، في شارع موسى، على بعد عدة خطوات من ساحة سان ماركو.

حين حضر جوان، مع بطاقة السكن، فهمَ أنَ الحرب لم تكن الشيء ذاته للجميع.

– اسمي جوان كارلسكي. وأنا أتشرّف بمعرفتك.

– اسمي إراسموس. كيف يسعني أن أخدمك؟

– أنا فرنسيّ. ومجبر أن أسكن هنا فترة مكوثي في البندقية.

لم يجب الرجل العجوز. ظلّ جامداً.

– لا أريد أن أثقل عليك بوجودي، قال جوان. سأسعى قدر الإمكان إلى أن أكون خفيفاً، وألّا أزعجك.

ابتسم إراسموس بطريقة خجولة، تكفي لتُسعِدَ قلب جوان.

– شكراً لاهتمامك، يا سيّدي، لكنّني مسنّ جدّاً فلا أقوى على الاهتمام بهذه الحرب. طبعاً سمعت عن بونابرت، وإذا كانت البندقية ستكون من الآن فصاعداً فرنسية، فلا

Twitter: @ketab_n

يسعني إلّا الامتثال.

كان العجوز يتكلم الفرنسية بطلاقة. انسحب أمام كارلسكي ودعاه للدخول. شكره جوان بإيماءة من رأسه وابتسم بدوره.

- أين تعلمت التكلّم بلغتنا يا سيّدي؟

- في باريس. منذ زمن طويل.

- ماذا كنت تفعل في باريس، إذا لم يكن في سؤالي تطفّل؟

- كنت أمارس مهنتي، أنا صانع كمنجات.

نظر جوان إلى إراسموس كأنّه يراه للمرّة الأولى.

- صانع كمنجات، تقول حضرتك؟

- بلى. ما الغريب في ذلك؟

- لا شيء. لكن أعتقد أنّ الآلهة ليست غريبة عن لقائنا هذا.

Twitter: @ketab_n

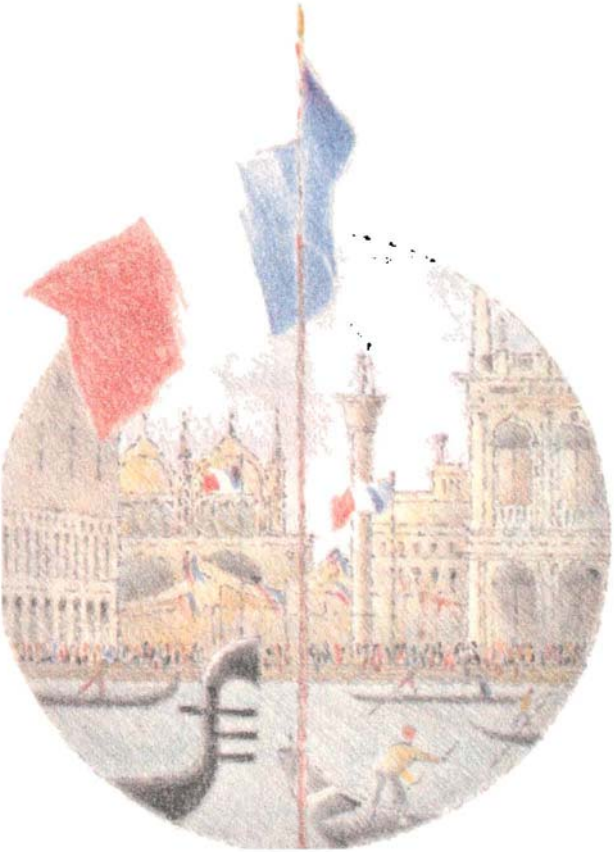

Twitter: @ketab_n

(13)

على هذه العوّامة من الصمت التي هي البندقية، والتي تغرق في البحر كلّ يوم أكثر، ثمّة الكثير من الأرواح المسكونة بالموسيقى.

الأولى كانت لجوان كارلسكي.

الثانية لإراسموس.

أمّا الثالثة فكانت روح الحرب.

غير أنّ هذه الأخيرة، لم يتكلّم عنها الرجلان إطلاقاً.

كلّ صباح، كان جوان يترك بيت صانع الكمنجات ويلتحق بحاميته على مضض. كان يضجر هناك بشدّة. وعلى العموم، لم يكن هناك ما يفعله. يُطلب منه أحياناً أن يملأ عدداً من الاستمارات، وذلك كان يزيد من ضجره.

في الرابع من يونيو، يوم عيد العنصرة، أقيمت حفلة فاخرة في ساحة سان ماركو، حيث اختلط الضباط الإيطاليون والفرنسيون. أعلام البندقية كانت قد استُبدلت برايات

Twitter: @ketab_n

الجمهورية الفرنسية ذات الألوان الثلاثة. وفي نهاية المراسم، حُرق الكتاب الذهبيّ وشعارات سلطة الذّوقات.

وتقرّر أيضاً إقامة أوبرا عظيمة على مسرح الفينيس. أتى العرض زاخراً بعلامات الترف والبذخ. وكان المسرح يرزح تحت وفرة الحرائر والمطرّزات والدانتيلا. كانت البندقية تريد أن تبدو سعيدة، تحت سلطة سيّدها الجديد.

لم يكن جوان يحضر هذه الاحتفالات إلّا مضطرّاً ومجبراً. كانت الحرب والأهوال والفظائع والتجاوزات قد أصابته أخيراً بالسأم. كان يرفض، بعد عمله، أن يسكر مع رفاقه، وكان يحثّ الخطى باتجاه منزل إراسموس.

– إذاً أنت لا تأبه في أن تكون نمساوياً أو فرنسياً أو إيطالياً؟

استفسر جوان في أوّل مساء حين التقى الرجلان وجهاً لوجه.

كان صانع الكمنجات محنيّاً على طاولة عمله، يصقل بعناية لا حدّ لها لوحاً لترديد الصّوت.

– الموسيقى هي وطني الحقيقيّ. ما تبقّى لا أهتمّ به كثيراً. ولكن أنت، رجل الحرب، من المؤكّد أنك لن تستطيع إدراك ما أعنيه.

– لا تظنّنّ ذلك. أنا لست جندياً إلّا بفعل سوء الحظ. في الحقيقة، أنا موسيقيّ.

Twitter: @ketab_n

رفع إراسموس بصره إلى جوان، وقد فوجئ:

- على أيّة آلة تعزف؟

خيّم صمت طويل كان الرجلان خلاله يتفحّصان أحدهما الآخر. عاد صانع الكمنجات يصقل قطعة الخشب التي بيده، وأجاب جوان:

- على الكمنجة.

على الفور توقّف إراسموس عن حركته. كان صوت جوان يرتجف وهو يتلفّظ هذه الكلمات. ثبّت الرجل العجوز عينيه السوداوين في عينَي الفرنسي ورأى أنّه صادق. فأخذ آلة معلّقة فوق طاولة عمله، وقدّمها إلى جوان قائلاً له:

- أثبت ذلك.

لم يكن كارلسكي قد لمس كمنجة منذ عدّة أشهر. تشمّم خشبها على مهل، داعبها مطوّلاً كما لو أنّها امرأة. ثمّ، بأناقة ودقّة، أسند الكمنجة بين كتفه وذقنه، وأخذ القوس وبدأ بالعزف. ببطء أوّلاً. ثمّ بدأ يسرّع تدريجيّاً. حتّى الدوار. كان عرضاً وجيزاً ومدهشاً، وحين توقّف، بعد أن عزف بسرعة فائقة سلسلة من مقطوعات «البيتسيكاتو»[1]، بقي للحظات دون حراك، عيناه مطبقتان، وهو يرتجف من السعادة، كما لو أنّ

(1) هي مقطوعات تُعزف نقراً على الأوتار بالأصابع، أي بدون استخدام قوس الكمنجة (م. من المترجمَين).

Twitter: @ketab_n

الموسيقى قد أذهلته.

فتح عينيه فلمحَ العجوز، الذي كان يتابعه بانتباه شديد. كان إراسموس واجماً وكمَن لا يعرف ما سيقول. لم يتزحزح عن مقعده.

ثمّ بدأ يبتسم، وبعد قليلٍ، صاح:

- مرحباً بك في بلد الموسيقى! مرحباً بك في منزل إراسموس!

Twitter: @ketab_n

(14)

كان منزل إراسموس صانع الكمنجات هو البيت الأقدم والأقلّ ترفاً بين منازل البندقية، غير أنّه يؤوي أجمل روح. كان يقع في زقاق منخفض عن مستوى البحيرة، وهو على الأرجح أوّل منزل يختفي من الوجود يوم تُبتلع البندقية.

كان إراسموس يكتفي بالقليل ليعيش. بإمكاننا الجزم أنّه كان يتغذى بالموسيقى. وبسرعة كبيرة، لم يعد يستطيع الاستغناء عن جوان.

كان إيراسموس يتباهى بامتلاكه ثلاثة أشياء استثنائية: كمنجة سوداء، لها صوت غريب، ورقعة شطرنج، ينعتها بالسحريّة، وخمر معتّقة. وعلاوة على ذلك مُنح الرجل العجوز ثلاث مواهب استثنائية: كان بلا منازعٍ أفضل صانع كمنجات في البندقية، ولم يخسر يوماً لعبة شطرنج، وكان هو من يقطّر الخمر الأكثر فرادة في إيطالية. لأجل ذلك وضع إنبيقاً في غرفة خلف محترفه. في الصباح كان يرمّم الكمنجات أو يصنعها،

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

وبعد الظهر يقطّر الخمر، وفي المساء يلعب الشطرنج. شغفه بهذه الأعمال الثلاثة كان يجلب له النشوة.

لا تلقاه إلّا منتشياً. كان على الدوام مأخوذاً إمّا بالموسيقى، أو بالمشروب أو باللّعب.

كان حين يسكر لا يكفّ عن الكلام. إذا لم يكن يتكلّم عن الكمنجات، فعن الخمر. وإذا لم يكن يتكلّم عن الخمر، فعن الشطرنج. وحين لا يتكلّم عن الشطرنج، فعن الموسيقى. وإذا لم يكن يتكلّم عن الموسيقى فما كان يقول شيئاً.

هنا، في محترف الرجل العجوز الذي أصبح صديقه، وطوال لعبة شطرنج بلا نهاية، استقى كارلسكي، مساء بعد مساء، الإلهام الضروريّ لابتكار رائعته.

Twitter: @ketab_n

(15)

– هل تقطير الخمر ممتع؟ سأل كارلسكي صديقه ذات مساء.

– إنه مسْكر! أجاب إراسموس.

على رقعة الشطرنج، كان الفيل الأسود يحمي الوزير.

– للحصول على نوعية فاخرة من الخمر، يلزم بعض الحبّ وبعض الوقت.

رفع جوان رأسه ونظر في عيني إراسموس وكرّر ببطء:

– بعض الحبّ وبعض الوقت...

ثمّ حرّك الحصانَ بطريقة غير محسوبة فأوقع ملِكه تحت تهديد إراسموس. بعد ثلاث حركاتٍ مات الملك.

– أينبغي الكثير من الحبّ ومن الوقت؟

– لا زيادة ولا نقصان. تبعاً للسنوات. «كش مات!»

ثمّ نهض، وأخذ كأسين، ملأهما بمشروب مسْكر بلون العسل، وقدّم واحدة منهما لعازف الكمنجة.

– تذوّق هذا، يا جوان! الجرعة الأولى نار! الثانية مخملية!

Twitter: @ketab_n

والثالثة حلم!

شرب كارلسكي ثلاث جرعات بالضبط، ببطء محسوب، بينما يحيطه صانع الكمنجات بنظرة أبويّة.

- الوقت، قال إراسموس بشيء من الحسرة، لم يبقَ لديّ منه الكثير... أمّا الحبّ...

ثمّ عضّ شفتيه بتكشيرة أسف وتنهّد طويلاً.

Twitter: @ketab_n

(16)

- وهل لعب الشطرنج ممتعٌ فعلاً؟ سأل جوان في اليوم الثاني.
- إنه شيء ساحر! فلكي يكون المرء لاعب شطرنج مميزاً ينبغي أن يكون لديه شيء من الجنون. ينبغي أن يتمثّل في ذهنه رقعة فيها أربعة وستّون مربّعاً أسود وأبيض، حتّى ليكاد يفقد صوابه. إنّها اللعبة الوحيدة التي تتوسّل بالجنون. لذا ألعب الشطرنج.
- لا أعرف ما إذا كان لديّ من الجنون ما يكفي لهذه اللعبة.
- إذا لعبت كلّ مساء أمام خصم خياليّ، كما أفعل أنا منذ أربع وخمسين سنة، فستصبح كذلك، كن على ثقة.

في الحقيقة، لم يكن جوان يبالي بالكحول ولا بالشطرنج. كان يتكلّم عن هذه الأشياء ليكسب حظوة لدى إراسموس. وما كان يعنيه، بالمقابل، هو الموسيقى. وما يحيّره قبل أيّ شيء آخر هو الكمنجة السّوداء، المعلّقة على الحائط، فوق طاولة المعلّم. كمنجة جميلة، مقلقة، وإنسانيّة، حتّى لَتبدو كأنّها حيّة.

Twitter: @ketab_n

(17)

- وهل العزف على هذا الكمنجة السّوداء ممتع؟ سأل جوان في اليوم الثالث.

رفع إيراسموس بصره وقد بدا عليه الشحوب قليلاً.

- هذه الكمنجة، لا أنصحك أن تلمس منها ولا حتّى وتراً.

- لماذا، هل هي من الرداءة بحيث لا تستحقّ العزف عليها؟

- بل بالعكس تماماً! هي أروع آلة عرفتُها. نفخة واحدة عليها تكفي ليعلو رنينها. غير أنّ الموسيقى التي تخرج منها تستطيع لغرابتها تغيير حياة من يعزف عليها. الأمر أشبه ما يكون بالسعادة. حين تعيشها مرّة، تدمغك بميسمها إلى الأبد. الأمر ذاته عندما تعزف على الكمنجة السّوداء.

- و هل عزفت أنت عليها؟

- مرّة واحدة. منذ زمن طويل. ومن حينها لم ألمسها أبداً. الأمر يشبه الحبّ. حين نعيشه لمرّة -أعني الحبّ الحقيقيّ،

Twitter: @ketab_n

الحبّ الكبير-، ينبغي على المرء فعل أيّ شيء لينساه. ليس هناك ما هو أسوأ من أن تعيش السعادة مرّة واحدة في حياتك. كلّ ما يتبقّى، بعدها، حتّى الأشياء التي لا معنى لها تصبح شقاءً كبيراً.

Twitter: @ketab_n

(18)

ما إن عاد جوان إلى غرفته ذلك المساء حتّى خطّ بضع نغمات على مدوّنة أوبراه. ثمّ أخلد إلى النوم وراح يحلم بالكمنجة السّوداء.

في نهار اليوم التالي، حين نهض، ألقى على عمله نظرة شاردة فلاحظ أمراً غريباً: كان دفتره أبيض كما كان حين اشتراه. لقد اختفى عمله بالكامل أثناء الليل.

في حالة من الذهول، بقي لمدّة طويلة عاجزاً عن التفكير. تذكّر حديث العشيّة والحلم الذي رآه في نومه. ما يحدث بمجمله كان مربكاً. هل كان حلُمه أطول ممّا كان يعتقد؟ أو ربّما لم يكتب قطّ على ذلك الدفتر؟

انغمس أثناء النهار في انشغالاته، ولم يعد للتفكير بما حدث له. لكن في المساء، حين دخل على إراسموس، أوّل ما لفت انتباهه، وهو يدخل المحترف، كان هو الكمنجة السّوداء المعلّقة على الحائط.

Twitter: @ketab_n

أدرك جوان أن هذه الكمنجة هي وراء ما كان يحدث له.
سواء أقبِلَ عقله بذلك أم لم يقبل به.

Twitter: @ketab_n

(19)

بعد بضعة أيّام، وهو يتكلّم عن إلهامه، عن تلك الموسيقى الحميمة التي تنمو في داخله والتي لم يكن يتسنّى له، لسبب غامض، أن ينقلها على الورق، بوغت جوان بسؤال إراسموس:

– هذه الأوبرا التي طالما تتكلّم عنها، هل سنسمعها قريباً؟

عقدت الدهشة لسان جوان فلم ينطق بكلمة واحدة. فهذه هي المرّة الأولى التي يسأله إراسموس فيها عن موسيقاه. عادةً، كان يكتفي بمرافقة أقواله وهو يهزّ رأسه، حتّى ظنّ جوان لفترة طويلة أن الرجل العجوز كان يسمعه دون أن يصغي حقّاً إلى ما يقوله.

أعاد إراسموس السؤال:

– إذن، متى ستنتهي، هذه الأوبرا؟

– ما زال الكلام عن موعد مبكّراً. ربما بعد شهر أو شهرين إذا سارت الأمور على ما يرام.

بعد ذلك بشهرين، عاد الرجل العجوز إلى مباغتته.

Twitter: @ketab_n

- كم ورقة تحتاج المدوّنة الموسيقية؟

سمع جوان نفسه يجيب بأكثر ما يمكن من الجِدّ.

- مائة وسبع وستوّن ورقة.

- كم نغمة؟

- سبعة عشر ألف وستمائة وثلاث وعشرون نغمة ما عدا السكتات.

- وكم أنجزت منها؟

لم يجب جوان.

في الحقيقة، كلّما كان يتقدّم في تأليف أوبراه، كانت تصبح أقرب إلى الخيال.

Twitter: @ketab_n

(20)

تردّد جوان طويلاً قبل أن يعترف للرجل العجوز.

مع ذلك، في إحدى الأمسيات، ما عاد يطيق الاحتمال. سبع مرّات حاول إملاء الدفتر. وسبع مرّات كانت الأوبرا تمّحي.

كان الرجلان يجلسان إلى الطاولة، يتقاسمان دجاجة مسقيّة بنبيذ فالبوليتشيلا[1]. كان ذلك في أوائل أكتوبر. وقد بدأت الشمس تختفي عن البحيرة أبكر قليلاً كلّ مساء. لم يكن احتفالاً بمناسبة خاصّة، سوى رحيل الفصل الجميل، ووصول طلائع الصقيع. وكان النبيذ المفعم بأريج التراب الإيطاليّ مثل بقيا عذبة من دفء وهناء هما على وشك الابتعاد.

أَزِفَ الوقت ليُريحَ جوان قلبه.

غير أنّ إراسموس باغته بالقول:

- أشعر أنّ لديك ما تقوله لي.

(1) نبيذ خاصّ بمنطقة فالبوليتشلا valpolicella التي تقع في إقليم فينيتو شمال شرق إيطاليا (م. م.).

Twitter: @ketab_n

بقيت نظرات الشابّ تائهة للحظات في الطبق قبل أن يرفع بصره ويجيب:

- كيف حزرت؟

للمرّة الأولى كان يرفع الكلفة مع صانع الكمنجات. ولم يمتعض إراسموس من ذلك. في تلك اللّحظة، شعر الرجلان أنّهما متقاربان لدرجة أنّ الصمت كان يكفي ليشرح كلّ شيء.

- لم يكن هذا صعباً. من الواضح أنّك كنت منهمكاً للغاية، منذ بعض الوقت. أخبرني بما ليس على ما يرام.

شرب جوان كأساً من النبيذ، وببضع كلمات، شرح له قصّة الدفتر.

- أرجّح أنّك حلمتَ، يا جوان. قصص كهذه لا تحدث إلّا في الأحلام.

- كلّا، يمكن أن أقسم لك. ثمّة ما يمنعني عن الكتابة.

- هل هي لعنة؟

كاد جوان أن يتكلّم عن الكمنجة السّوداء، ولكنه عدلَ عن ذلك في اللحظة الأخيرة.

- ربّما...

كان يشعر بوجود الكمنجة السّوداء وراءه، وكان هذا يربكه بشكل غريب.

- إذن علينا الانتظار، قال إراسموس وهو ينهض عن

Twitter: @ketab_n

الطاولة ويعود إلى مقعده.

أمامه، على رقعة الشطرنج، كان الحصان الأسود يحمي الوزير. لحق جوان بصانع الكمنجات.

جلس أمامه. أخرج هذا الأخير زجاجة خمر. وأكمل الرجلان لعبة كانا أوقفاها في العشيّة.

- انتظار ماذا؟

- أن يحصل شيء ما.

- لم أفهم.

- ما يُدعى الأمل. يوماً ما، ستكتبها، الأوبرا التي تخصّك. وستعزفها. ربما لمرّة واحدة، فقط لنفسك، لكنّك ستعزفها. بلا أملٍ، لا سعادة ممكنة على الأرض.

كرّر جوان ببطء كلمات إراسموس.

- ... لا سعادة على الأرض... غير أنّ السعادة موجودة في الأحلام! هنالك سرّ لم أخبرك عنه يوماً. ففي إحدى الليالي -تلك الليلة المشهودة التي كنت فيها مصاباً في ساحة المعركة-، أتت امرأة لتزورني... أظنّ أنّ هذا حدث في المنام، ومنذ ذلك الحين وهي تسكن لياليَّ.

- انتظرْ تحقّق الحلم وستصل إلى الخلاص، هذا ما يحصل دائماً في النهاية. يكفي الانتظار.

Twitter: @ketab_n

– مدّة طويلة؟

– ليس للوقت علاقة بالأمر. عدّة لحظات أو عدّة قرون، ليس هذا مهمّاً.

دائماً يجد الانتظار خلاصه في النهاية.

– دائماً؟ سأل جوان.

– دائماً! أجاب إراسموس.

تنهّد جوان وحرّك الوزير الأسود.

– لا أعرف ما إذا كان سيكون لديّ الصبر، قال. وقرّر الانتظار.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(21)

في اليوم التالي، حول رقعة الشطرنج، وأثناء إتمام اللعبة التي كانوا يوقفونها كلّ مساء، قال إراسموس لجوان:

- الأوبرا التي تخصّك، يجب، قبل أن تكتبها، أن تعيشها.

- هذا صحيح، قال جوان. لم يخطر لي ذلك على بال. حتّى أنّي لم أفكّر يوماً في أنّ ثمة نفعاً في أن نعيش.

- وأنا أعرف كيف تجعل حياتك مثيرة للاهتمام.

- حقاً؟ بأية وسيلة؟

- في المضيّ والبحث عن حصّة الحلم التي تستحقّها.

- أين أجد هذه الحصّة؟

- يوجد شيء منها في كلّ مكان في العالم. ولكن خصوصاً في داخلك!

رفع جوان بصره، مندهشاً، صوب صانع الكمنجات. ثمّ، ودون إمعان في التفكير، حرّك الفيل وجعله يعود سبعة مربّعات إلى الخلف.

Twitter: @ketab_n

- لكلّ روح حصّتها من الحلم. وأنت في حلمك كلّ ليلة بالمرأة الغريبة والجميلة، تنخرط في هذا المبدأ.

- الجميل، في هذه الأحلام، أنّها بلا حدود، وتمنح المرء كلّ أشكال القدرة.

- بالطبع. كلّ شيء ممكن في الحلم.

- ماذا ينبغي على المرء فعله ليمتلكها في الحياة أيضاً؟

لم يجب إيراسموس مباشرةً. حدّق مطوّلاً في رقعة الشطرنج، وبالوزير أخذ فيلَ جوان. ثمّ كرع جرعة كبيرة من الخمر، نظر بعدها إلى الكمنجة السّوداء المعلّقة على الحائط. وأخيراً، وهو يلتفت إلى جوان، قال:

- أترى؟، ينبغي في النهاية تحطيم الأحلام.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(22)

ذات أحد من شهر نوفمبر 1797، وبينما الثلج يهطل على البندقية، ذهب جوان إلى كنيسة سان زكريا ليحضر القدّاس. وحين أصبح وحده في بيت الربّ، ركع وأغلق على نفسه في عمق صلاته.

سمع في تلك اللحظة صوت امرأة يعلو تدريجياً وعلى مهل: غناء هشّ وجميل. سرت قشعريرة في كامل جسده. صوت أثيريّ. لا يستطيع سامعه أن يمنع نفسه من التفكير في الله.

لم يكن يعلم من أين يأتي الصوت، ولا من يخاطب. لم يكن يعلم أيّ شيء عن ذلك. غير أنّ ما هو متأكّد منه، هو أنّ هذا الصوت هو ذاته صوت المرأة المجهولة التي قدّمت في وقيعة مونتي نوتي الماء لجسده والغناء لروحه، وأنقذته من موت محقّق. هذه الموسيقى ونبرة الصوت تلك كم من المرّات رآهما في حلمه ولا يمكن لهما أن تنتميا إلّا لذاك الصوت السامي. لقد كانت هي.

Twitter: @ketab_n

عاد جوان والتقط أنفاسه فيما كانت الموسيقى تملأ الكنيسة، وتملأ روحه، وتعبر جسده وعقله. كان يصبو في كثير من الأحيان لهذا المشهد، هذه اللحظة التي حسبَها مستحيلة منذ لحظات قليلة!

هذا الصوت الذي لم يكن يغنّي لله فحسب. كان جوان يعرف أنّه يغني له أيضاً. كان مقتنعاً بذلك في المطلق. هذا الصوت هو صوت أوبراه، مثلما كانت أوبراه مكرّسة لهذا الصوت. هذه المرأة، هذه المجهولة، كانت تمتلك بعضاً من حصّة الحلم الذي يسكنه. كما يمتلك هو بعضاً من روحها. هكذا كان الأمر.

بقي جوان راكعاً، مرتعداً من الانفعال، مرتعشاً من اللّذة والسعادة. لم يكن يجرؤ أن يفتح عينيه مخافة أن يختفي السِّحر، أن ينقطع الصوت. لا يريد للغناء أن يتوقّف. كان ينبغي الانتظار أكثر، انتظار أن يحدث شيء، أن يتشكّل شيء، أن يعيش وينمو في داخله. كالولادة. كالخلق. كالتمزّق. إنجاب جزء من روحه بالألم واللذة.

انتهى الغناء، ففتح عينيه. ونهض ببطء، متردّداً، ثمّ بحث عن المجهولة بنظراته. لكنّه لم يرَ أحداً. ولا حتّى ظلاً. ليس إلّا غياب الموسيقى وتلاشي الصوت.

Twitter: @ketab_n

كان بمفرده. وحيداً مع الصوت الذي في داخله وحوله.
والذي، من جديدٍ، أفلت منه.
هرب إلى بيت إراسموس مصاباً بالدوار.

Twitter: @ketab_n

(23)

حين أخبر جوان الرجلَ العجوز عن الصوت، رأى ضوءاً ينبعث في نظرته.

- إذن أنت أيضاً قابلتها؟ أنت أيضاً في النهاية كسرت الحلم؟

صمت أوّل. لم يعرف جوان ماذا يجب أن يقول.

- أتعرف من هي؟ سأل إراسموس. أتعرف ما هذا الصوت؟

صمت ثانٍ.

- أخشى أنّني أعرف...

حطّت نظرات الرجلين على نقطة محدّدة على الحائط.

- اجلسْ، جوان، أريد أن أقول لك شيئاً.

أطاع الشابّ، وبينما يسكب له إراسموس الشراب، أدرك أنّ الوقت قد حان ليفشي له المعلّم العجوز سرّ الكمنجة السّوداء.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(24)

بنزوع غريب للعقل يدنو أحياناً من حافّة الجنون، لم يكن لديّ سوى هدف واحد في الوجود هو أن أحوّل الموسيقى إلى حياة. كنت أريد أن يقال عنّي: إراسموس صانع الكمنجات الأمهر على مرّ الأزمنة. كنت أعرف أنّني أمتلك نفحة العبقرية.

كنت شابّاً، حين بدأت هذه القصة، أسكن بعيداً عن البندقية، في مدينة تدعى كريمونا، كانت مهد صناعة الكمنجة. في هذه المنطقة، حيثُ ولدت آلة الكمنجة في بداية القرن السادس عشر، تعلّمت فنّ صناعتها.

لقد قدِّرَ لي النجاح في هذه المهنة، ولكن، في الحقيقة، كنت أطمح لشيء آخر. شيء أكبر، يكون هائلاً حقّاً. كنت أريد أن أصنع أجمل كمنجة في العالم: الكمنجة الكاملة، برنينِ صوتٍ هو من السموّ بحيث أنّ من يعزف عليه سوف يخاطب السّماء ويكلّم الله.

.

Twitter: @ketab_n

(25)

منذ طفولتي، عشقت الموسيقى وخدمتُها، قاصداً من وراء ذلك خدمة الله. ليس غروراً، غير أني مقتنع بامتلاكي موهبة عظيمة، وإرادة غير عادية، وتلك الإضافة في الروح التي تجعل بعض الناس إمّا عباقرة أو مجانين -وما نعرفه جيّداً هو أن الحالين متماثلتان تقريباً.

لم أكرّس نفسي يوماً لشيء غير الكمال الفنيّ. أستيقظ وآكل وأمشي وأنام وأعيش من أجل الموسيقى. الموسيقى الغريبة التي وددتُ أن أحبسها داخل كمنجاتي.

في الحقيقة، هذه الموسيقى الكاملة كانت صوت إنسان. صوت امرأة. كنت أعرفها أكثر ممّا أعرف نفسي. صوت أعرفه أفضل ممّا أعرف صوتي. إلّا أن هذا الصوت، لتعاستي، لم أكن قد سمعته إلّا في الحلم.

Twitter: @ketab_n

(26)

لا أعرف سوى آلة واحدة صوتها شبيه بصوت الإنسان: الكمنجة. منذ اللحظة التي شعرت فيها باهتزازاتها وما يمكن أن ينتج عن لقاء القوس بأوتارها الأربعة، لم يتوقّف شغفي بهذه الآلة. الكمنجة صوت بشريّ.

في أحد الأيّام، عزف أبي أمامي مقطوعة موسيقية أثّرت فيّ بعمق.

- هذا هو بالضبط ما أريد عمله، قلت له، بمجرّد أن وضعَ القوس.
- أتريد أن تصبح عازف كمنجة؟
- ليس ذلك فقط. أودّ ابتكار كمنجات تحاكي قلوب الناس. لا بل حتّى ابتكار أجمل كمنجة في العالم!

تفحّصني بشيء من القسوة، غير أنها بدت مخفّفة بالاهتمام الذي أبداه لطلبي.

- حقاً هذا هو العمل الذي تريد امتهانه؟

Twitter: @ketab_n

– نعم، أجبته بنبرة واثقة.

– حسناً. سنرى إن كنت تقدر على ذلك.

في اليوم التالي اصطحبني إلى محترَف فرانشسكو ستراديفاري[1]، ابن أنطونيو، الذي يُدعى ستراديفاريوس، والذي لم يكن قد مضى على وفاته إلّا وقت قصير.

(1) اسم حقيقيّ، وأسرة ستراديفاري من أشهر الأسَر الصانعة للكمنجات (م. م.).

Twitter: @ketab_n

(27)

كان فرانشسكو ستراديفاري رجلاً ينتمي إلى زمن آخر. كان ذا عِلم كبير، إلّا أنه لم يكن يضاهي بأيّ حال عبقرية الراحل المشهور والده. حين استخدمني متدرّباً عنده، كانت الشركة العائلية قد بدأت قبل مدّة بالتدهور. ولم يكن بقي أمام فرانشسكو إلّا عام واحد ليعيشه. كان العصر الذهبيّ لصناعة الكمنجات الكريمونيّة (نسبة إلى اسم المدينة) آخذاً بالأفول.

لم يكن فرانشسكو كثير الكلام. لم يكن يعرف غير الموسيقى، ليعبّر عن أحزانه وأفراحه. ومن كثرة انهماكه بالعزف كان يترك لمتدرّبيه صنع الكمنجات. وكان يمهرها باسمه، وحتّى أحياناً باسم والده، حين يكون الطلب آتياً من شخصية مرموقة.

كان سادة هذا العالم يتسابقون منذ وقت مبكّر لاقتناء آلة «ستراديفاريوس» مهما يكن ثمنها. وفرَق البلاطات الموسيقية التي لا تضمّ آلات من صنع المعلّم كان يُنظر لها غالباً باستخفاف، ويرفض العازفون الكبار العزف معها. كذلك كان

Twitter: @ketab_n

الملوك والأمراء والدوقات، بصفتهم رعاةً للفنون حقيقيّين، مستعدّين لصرف مبالغ باهظة ليعطوا فرقَهم آلة أو أكثر تحمل إمضاء صانع الكمنجات الأكبر.

في أحد الأيّام، أرسل ملك السويد قائد جوقة كنيسته الموسيقية كي يأتي ويقدّم طلباً لكمنجة صغيرة من نوع «الآلتو»[1] لولده. وضّح المبعوث أنّ الملك يريد بالطبع آلة «ستراديفاريوس». إلّا أنّ كلّ كمنجات المعلم كانت قد بيعت. عندئذ قرّر فرانشسكو أن يحلّ الأزمة ويعرض على المبعوث، بسعر مناسب، آلة أنجزها هو للتوّ، وكان منقوشاً على متنها:

صنعَها في 1742

فرانشسكو ستراديفاريوس الكريمونيّ ابن انطونيو

بعد شهرين عاد إليه مبعوث ملك السويد.

- جلالة ملك السويد غاضب جدّاً، قال له. ليس الآلتو الذي طلبه كمنجة «ستراديفاريوس» حقيقيّة.

وأخرج صرّة ملأى بالذهب ورماها على طاولة المحترف.

- أعتقد أنّ هذا سيكفي؟

(1) الآلتو alto في الآلات الوترية هو الكمنجة الوسطى، ويدعى أيضاً الفيولا (م. م.).

Twitter: @ketab_n

ودون أن ينبس ببنت شفة، أخذ فرانشسكو الكمنجة وتأمّل عمله بأسى.

بعينٍ قلقة كان المبعوث يحدّق بصانع الكمنجات الذي بدا مثاراً من شدّة الغضب.

- تريد كمنجة «ستراديفاريوس» حقيقيّة! صرخ وهو يصرّ على أسنانه. سأعطيك، أنا، آلة «ستراديفاريوس» حقيقية!

ثمّ ركض إلى المحترَف وأغلق الباب على نفسه. سمعوه يحرّك أدواته. وأخيراً، وبعد فترة طويلة، خرج مع آلة شبيه بالأولى. ولكن كتب على بطاقتها:

صنعَها في 1737

أنطونيو ستراديفاريوس الكريمونيّ

يحكى أنّ ملك السويد نشر شائعة، في كلّ أوروبا، مفادها أنّه استطاع بمبلغ من الذهب الحصول على آخر إبداعات معلّم كريمونا.

بالطبع اكتفى فرانشسكو بتبديل الكتابة على الكمنجة، وبهذه الحركة البسيطة ضاعف من قيمة الآلة.

وهكذا، بفضل ملك السويد، أصبح فرانشسكو غنيّاً. ولكنْ على النّحو ذاته، أصبح أكثر مرارة.

Twitter: @ketab_n

كان كلّ ما في هذا الرجل يعكس خيبة الأمل والمرارة اللّتين تغزوان من يحمل عِلماً لا مثيل له ويراه يتلاشى شيئاً فشيئاً. كانت شهرة أبيه تلقي عليه ظلالاً ثقيلة وتمنعه من أن يحقّق بطريقة مكتملة وسعيدة عمله كفنّان، ممّا جعله بعد فترة يهمل أدواته، مكتفياً بمراقبة عمل المتدرّبين.

في الصباح، حين يستيقظ، كان يأخذ كمنجته، ويحدث صوتاً تتابعيّاً، لتليين أصابعه وتنشيطها. ثمّ يمرّ لاحقاً على مقاطع أكثر صعوبة، وأخيراً، في المساء، كان يتجرّأ على عزف بضع مقطوعات من تأليفه.

حين يغامر أحد تلامذته بطرح سؤال عليه، كان يأخذ كمنجته ويعزف حتّى يربك مستمعه. عندها يتوقّف ويقول ببساطة:

- حين تكون جديراً بأن تؤثر حتّى البكاء وأنت تعزف الموسيقى، ستكتشف أنّه لا داعي لاستخدام صوتك.

أعتقد أنّه كان يعي أنّه لم يكن أكثر من ابن لأكبر صانع كمنجات على مرّ الأزمنة، وهذا الشيء كان يرمي به في هوّة يأس سحيق.

بعكس هذا الأستاذ الكتوم، كنتُ أنا شاباً طافحاً بالحيوية. كانت موسيقاي الحميمة تصرّح عن نفسها بثرثرة لا تتوقّف، بالصراخ، بالغضب، بالضحكات، وباهتزازات من كلّ

Twitter: @ketab_n

الأنواع. وفيما كانت روح فرانشسكو ستراديفاري تطمح إلى الصمت كانت روحي تمتصّ الأصوات مثل إسفنجة.

من الفراغ إلى الاهتزاز، لم تكن الموسيقى تعرف آلة أفضل من شغفي للكمنجة. شغف شبيه جدّاً بشغف ستراديفاريوس الذي لم أقابله قطّ، والذي كان يمكنني أن أعرفه أكثر من أيّ شخص آخر.

Twitter: @ketab_n

(28)

بقي محترَف الراحل أنطونيو ستراديفاري، لمدّة طويلة بعد موته، ينبض بطاقته الاستثنائية.

هذه النبضات، غير الملموسة بالنسبة لسائر الناس، كانت موجودة لبعض الأرواح الحسّاسة، وكنت أشعر بها كلّما دخلتُ عرين المعلّم. وبينما لم يكن فرانشسكو يرى في زحام الآلات المبعثرة وألواح ترديد الأصوات والجبائر المنثورة في المحترف غير ركامِ قطع خشبية مخصّصة لصناعة آلة ستُحدث صوتاً، مهما يكن استثنائياً، كنت أنا ألمح فيه معجزة التوازن التي تمكّن من صناعةِ صوتٍ يربط العالم البشريّ بالآخر السماويّ.

Twitter: @ketab_n

(29)

وكان حلم رأيته في المنام هو ما أوصلني لصناعة الكمنجة السّوداء.

كنت حالماً لا يتوب. عندما لا يتسنّى لي الحلم وأنا مستيقظ في المحترَف، كنت أحلم طوال الليل. فخَلا صناعة الكمنجة، ما من نشاط يجلب لي السعادة على هذه الأرض.

كلّ ليلة، كان حلمي هو ذاته. حكاية بلا خاتمة.

امرأة تتّجه صوبي. لا أعرف عنها شيئاً، ولا عن وجهها، أو جسدها. لكنّ صوتها الذهبيّ يسكن ليلي، ويخترق قلبي كلّما سمعتُه.

كنت في حقيقة الأمر عاشقاً لامرأة ليس لها وجود.

دام ذلك سنوات طويلة. وفي كلّ ليلة كان يرجع الحلم ذاته في نومي. أسير في مدينة مجهولة، وعند منعطف شارع صغير، أسمع غناء كمنجة. فأترك نفسي تنقاد لهذا الصوت، الذي يأخذني إلى شوارع خالية، جامدة كالقمر، ومفتوحة على الحلم،

Twitter: @ketab_n

حتّى أصل على مقربة من جسر حجريّ ممتدّ فوق قناة تعكس مياهها الرائقة وجها مقنّعاً. المرأة التي كانت تعزف تقف على الجسر. مدبرةً ظهرها. أقترب ببطء منها، ألمس كتفها، بينما الموسيقى تسحر جسدي، وروحي. تستدير المرأة، فأكتشف هذا الشيء المثاليّ: لم تكن تعزف على الكمنجة! في الواقع، كانت هي الكمنجة! من وركيها إلى الخصر، ومن البطن حتّى الرقبة. جسدها مدوّر، كاستدارة الكمنجة. وصوتها كان صوت الآلة، ومن فرط ما هو بلوريّ بدا فوق طاقة البشر. تمسك بين يديها نوتة موسيقية لأوبرا، واللّحن الذي تغنّيه، هذه الموسيقى العجائبية، تتدفّق منها كما لو أنّها موسيقى إلهية. كانت تفتح ذراعيها واهبة نفسها لي، وفي اللحظة التي أضمّها فيها، امرأة، كمنجة، موسيقى وحلماً، تختفي في اللّهب. فأبدأ بالصراخ، وأخيراً أستيقظ.

كلّ صباح، كنت أحاول أن أعود لملاقاة النبرة الاستثنائية لهذا الصوت على إحدى كمنجاتي، ولكن لم أنجح يوماً في الحصول على هذه الدرجة من الكمال.

لم أذكر هذا الحلم الغريب لأحد. لا لفرانشسكو ستراديفاري- رغم أنّي كنت أخصّه بصداقة حانية وصادقة- ولا لرفاقي الذين كانوا يعملون إلى جانبي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(30)

في عام 1743، توفّي فرانشسكو، وانطفأت معه سلالة ستراديفاري الشهيرة.

ترك الرفاق كريمونا ليقيموا في مدن أوربية أخرى.

وجدت نفسي وحيداً في المحترَف. وقد وصلت الأعمال إلى أسوأ حال.

وفي أحد الأيّام، مرّ بكريمونا الكونت فيرنزي من البندقيّة لطلب كمنجة. بدا الرجل مثيراً للريبة، مختالاً بنفسه، وثريّاً ببذخ. كان يسافر مع اثنين من خدمه يتبعونه في كلّ تنقلاته. لم يبقَ غيرَ وقت قصير في المحترَف وشرح لي أنّه يجب أن يعود إلى البندقية على الفور.

- أريدك أن تكون مجتهداً جدّاً، وتلتزم بتسليمي الطلب في أوّل أحدٍ من شهر أكتوبر.

- ذلك لا يمنحني إلّا وقتاً قصيراً...

- سأدفع لك الثمن الذي تريده.

Twitter: @ketab_n

فكّرت للحظات ورأيت أنّه لم يكن لديّ الخيار. مع العلم أنّ لديّ الخبرة والكفاية المهنيّة لتلبية هذا الطلب المتعجرف.

- سأعمل ليلَ نهارَ إذا لزم الأمر. وسآتي بنفسي إلى البندقية لأسلّمك الكمنجة في اليوم والساعة.

انصرف الكونت بعد أن دفع لي ثمن الآلة.

أغلقت المحترَف على نفسي وبدأت العمل للتوّ.

اخترت أن أصنع الكمنجة وفقاً لأنموذج كان قد صممه ستراديفاري. كان تصميم المعلّم يخضع لقوانين معقّدة، درستها طويلاً قبل الشروع في العمل. وفي غضون أسابيع حصلتُ على آلة خام. وبعدما تأكّدت من ميزاتها الصوتية، التي وجدتها ممتازة، أمكنني تلميعها بالبرنيق. وفي النهاية، ركّبت الأوتار فوجدت بين يديّ أوّل كمنجة من صنعي. شعرت بالارتياح، ولاحقاً جعلتها ترنّ فأدركت أنني بدَوري أصبحت صانع كمنجة مكتملاً.

استطعتُ وأنا محنيّ على طاولة المحترَف ليلَ نهارَ أن أحقّق، بزمن قصير وبطريقة غريبة، آلة ناجحة إلى حدّ كبير.

وفي الأحد الأوّل من أكتوبر، في الفجر، ذهبت إلى البندقية.

Twitter: @ketab_n

(31)

كان عمري في ذلك اليوم عشرين عاماً، وكنت أكتشف البندقية للمرّة الأولى. وكنت أشعر بامتلاكي شيئين صافيين وجميلين: كمنجة وقلب. لم أكن أعرف حينئذ أنّي سأحطمهما معاً. إلى الأبد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(32)

أكثر ما فاجأني، أثناء دخولي البندقية، كان ذلك الإحساس بالخفّة الذي سكن كياني، نشوة الحواسّ والفرحة المفاجأة بأن تعيش وأن تحبّ. هذا هو الديكور الرائع للحبّ.

كنّا في أوّل الخريف. وللتوّ بدأ الكرنفال. الناس سعداء. وخلال ستّة أشهر، ستصبح البندقية ضرباً من الخيال. سوف تنفق الأموال إلى أن يأتي الصيام، فقط لأجل متعة النظر.

وصلتُ المدينة على متن مركب ونزلت إلى رصيف قصر فيرنزي. كان منزلاً فينيسيّاً جميلاً بطبقتين، مدخله الأساسي يطلّ على القناة الكبيرة. والواجهة مطليّة بلون أمغر، ورغم أنها متهالكة في بعض الأماكن، كانت تنعكس بمهابة على المياه السوداء. قفزت إلى الأرض وقرعت جرس الباب. فتح لي خادم في ثيابه الرسمية.

- اسمي إراسموس وأنا أبحث عن الكونت فيرنزي. لديّ كمنجة يجب أن أسلّمها له.

Twitter: @ketab_n

– لحظة من فضلك، سأخبر سيّدي الكونت. تفضّل إذا سمحت...

دخلت إلى دهليز كبير. دعاني الخادم للانتظار وصعد الدرج. انتهزت غيابه لأرضي فضولي وأتأمّل أدقّ تفاصيل حجرة الانتظار.

كانت الأرضية عبارة عن خزف أنيق أسود وأبيض، مصفّف على شكل رقعة شطرنج. والجدران مطليّة بألوان دافئة، زاخرة باللوحات التي تصوّر البحيرة عبر الفصول المتعاقبة. وفي أكثر من زاوية وُضع تمثال لأنثى عارية. النوافذ مفتوحة على القناة الكبيرة بشكل أروقة تصنع رغم الضباب الصباحيّ مشهداً استثنائياً. وفي أسفل الدرج منضدة رائعة من مرمر ورديّ اللّون وُضعت عليها علبة سعوط فضية. كان الدهليز يقدّم مجرّد فكرة مسبقة عن عجائب القصر.

ورغم ذلك لا يفلح منزل آل فيرنزي، لا ولا البندقية بأسرها، في جعلنا ننسى أنّ هذه الجوهرة المعمارية قائمة على ركائز مغروزة في الطين، وأنّ كلّ ذهب العالم غير قادر على إنقاذها من الغرق. وفيما هي ماضية إلى شيخوختها، كانت المدينة تخفي تجاعيدها تحت قناع من البذخ، ومن الحرير والستائر. كانت تريد أن تبدو جميلة وقويّة، في حين لم يعد ذلك إلّا هالة ماضيها.

لاحظت شقوقاً في عدّة مواضع في جدار الدرج، الذي لم

Twitter: @ketab_n

يعد برنيق جماله القديم قادراً على إخفاء الصدوع التي يُحدثها الزمن.

بعد قليل ظهر الكونت.

بدا لي بمثل غرابته في لقائنا الأوّل. وشأنه شأن منزله، كان يريد أن يخدع بمظهره، غير أنّ المرء كان يشعر بأنّه شائخ ومريض.

- بماذا أستطيع مساعدتك أيها السيد؟

- أنا اسمي إراسموس وأتيت لأحضر لك الكمنجة التي طلبتها منّي.

- آه، نعم، تذكّرت. ولكنّها ليست لي، إنّها لابنتي كارلا. كنت أود أن أهديها إيّاها بعيد ميلادها، الذي يصادف بداية الكرنفال. كلّ عام نواجه المأزق ذاته. هي تمتلك أشياء كثيرة! ولم أعلم يوماً ماذا أهديها: حليّ، مجوهرات، فساتين... أعتقد أنّني استطعت هذه المرّة أن أظهر بعض التفرّد.

ثمّ، بصوت أخفض، كما لو في السرّ:

- هي لن تعود قبل هذا المساء وأتمنّى أن تسلمّها إيّاها أنت شخصياً. أمّا أنا، فعليّ الذهاب مباشرة إلى فيرونا حيث تستدعيني الأعمال. وللأسف سأغيب عدّة أيّام. فهل بإمكاني أن أطلب منك الرجوع مرّة أخرى؟

Twitter: @ketab_n

– في خدمتك سيّدي.

– حسناً. تعال عند هبوط الليل. سأقيم حفلة كبيرة هنا بمناسبة افتتاح الكرنفال. تعال متنكّراً بالشكل الذي يعجبك. وقدّم لكارلا الكمنجة نيابة عنّي. وسأكون ممتنّاً لذلك.

– في المساء سأكون هنا سيّدي الكونت.

شكرني وأضاف كما لو أنه يكلّم نفسه:

– هذه الأعمال مزعجة. ابنتي ستغنّي في الفينيس مساء الغد، كم سأكون سعيداً لو سمعتها.

– إذن ابنة حضرتك مغنّية؟

– لا، ولكن استأجرتُ مسرح الفينيس من أجلها. لديها خامة صوت سوبرانو جميل[1]. إذا سنحت لك الفرصة، فلا تتوانَ عن الذهاب لسماعها. يقال إنّ لديها صوتاً ذهبيّاً! إذا سمعته، فلن تستطيع نسيانه.

وعدته بأن أستمع إلى نصيحته.

– حسناً، حسناً. والآن، اعذرني، وقتي ضيّق. إلى اللقاء، أيّها السيّد.

ثمّ تصافحنا وغادرت القصر.

---

(1) السّوبرانو soprano هي طبقة الصوت العليا عند النساء (م. م.)

Twitter: @ketab_n

(33)

بقيت أتسكّع في شوارع البندقية حتّى المساء. كان الاحتفال في بدايته. والهواء يعبق بأريج الحريّة، علاوة على بعض العطور الخفيفة التي تتضوّع هنا وهناك.

على مقربة من ميدان سان أنجلو، جلست أتلذّذ بحبّار في حبره على شرفة مطعم تراتوريا[1].

بعد الظهر، تركت نفسي تنقاد إلى مصادفات الشوارع الصغيرة والجسور، غير مهتمّ بطريقي، مستعدّاً تماماً لأضيع في المدينة.

كنت أرتدي عباءة سوداء طويلة، وقبّعة مثلثة الحوافّ وقناعاً أبيض. التفتت بعض المحظيات إلى مروري وسخرن من هيئتي.

أغاظتني السخرية، فاستفسرتُ مباشرة عن خيّاط الألبسة لأجد لي لباساً تنكّرياً.

---

(1) Trattoria: هو أحد أنواع المطاعم الشعبية المنتشرة في إيطاليا (م. م.)

Twitter: @ketab_n

وصلت إلى وسط المدينة، مزيناً بحلّتي الجديدة، حيث كان الحفل محتدماً، بين الأقنعة والمهرّجين، والبهلوانات والموسيقيّين.

كان الكرنفال قد بدأ للتوّ تحت مطر من الشرائط والقصاصات الورقية الملونة. وكان على الرصيف نافث نار يسترعي الانتباه، وبعد قليل استُبدل بفرقة كوميدية.

اختلطتُ بالموكب، ومن حين لآخر صرت أتبادل الكلمات مع الغرباء، تحت القناع، وما كنّا نعرف لمن نوجّه الكلام. هل كنّا نخاطب دوقة، أم خادمة، رجلاً، أم امرأة؟ من كنت أنا نفسي تحت هذه الثياب الهزلية؟ تحت قناع الذئب، ألا يُحتمل أن يظنّوا أنّي أحد الوجهاء، أو بطريركاً، أو حتّى قاضي القضاة نفسه؟ أو ربما جاسوساً، أو لماذا لا أكون أحد أسوأ اللصوص؟

بدخولي المدينة، غصت في جنون الكرنفال. لم يعد منذ تلك اللحظة من مستحيل.

على زاوية الشارع كان يتنافس لاعبو النرد. كان أحدهم قد كدّس أمامه كومة من الدّوكات[1]، بينما الآخرون عابسون، يحاولون تدارك خسارتهم بالمقامرة للمرّة الأخيرة بما تبقّى من ثروتهم الهزيلة. وكان مقنّعون ممدّدين على سور الجسر، يضايقون العابرين، وهم يطلقون تعليقات بذيئة. المهرجون مغتبطون، وهم يحاولون استدرار بعض القطع النقدية بهزلياتهم. راقص بلباسه الأبيض كان يتزحلق ببطء على حبل فوق الماء. وعند

(1) عُملة من ذلك العهد (م. م.).

Twitter: @ketab_n

منعطف شارع اجتذبَ أذنيّ صوت مزمارٍ، وبإصرارٍ أخذتني إحدى المتنكّرات المرحات من يدي وزجّت بي في رقصة دائريّة. لم تكن المدينة إلّا مسرحاً واسعاً يتصارع الحلم والجنون للاستحواذ عليه.

وحلّ الليل بعد قليل.

أظلمت القنوات، مبتلعةً انعكاس القمر في جوف حبرها الأسود. أقفرت الشوارع الصغيرة، وبدأت تضاء القصور، الواحد تلو الآخر.

ازدادت شدّة البرد. وكان الوقت قد حان لاستكمال الحفل داخل القصور.

كان ينتظرني أمام منزل آل فيرنزي حارس متنكّر بثياب مهرّج.

– لا يسمح للمتنكّرين بأن يحملوا سيفاً، قال لي.

نظرت إلى جانبي باستغراب. ثمّ أدركت سوء التفاهم.

– هذا ليس سيفاً، أجبت وأنا أضحك، إنّه كمنجة!

وقدّمتها له.

– أنت متأخّر يا سيّدي، فقد وصل الموسيقيّون.

لم أجبه بشيء. أفسح المهرّج لي وتمكنّت من دخول المنزل.

كان الاحتفال مقاماً في الصالونات، حيث اصطفّت الطاولات في ثلاث غرف متتابعة، تحت مواقد واسعة من المرمر. وعلى منصّة صغيرة، في عمق الصالة، كانت أوركسترا

Twitter: @ketab_n

تعزف الفالس.

كان مشهداً مذهلاً من الفخامة: على الطاولات، بين أدوات المائدة الذهبية والفضية، كانت الأطباق الذهبية عامرة بالمصبِّرات والمقبّلات وكلّ صنوف الأطعمة، دون ذكر الأعداد المدهشة من الأباريق المترعة بالنبيذ الأبيض والأحمر. ولكن أكثر ما بدا لي خرافياً كان أزياء النساء. أثوابهنّ التي تتنافس بالألوان والابتكار.

كنت أشعر بشيء من الضياع، حين رأيت فجأةً الخادم الذي رأيته صباحاً. سألته:

- أين أستطيع أن أجد ابنة الكونت، كارلا فيرنزي؟

رفع يديه للأعلى.

- كيف تريدني أن أعرف ذلك؟ والجميع متنكّر!

ومضى باتجاه المطابخ.

نظرت حولي، كان ثمّة أكثر من مائتي شخص، وجميعهم لا يمكن معرفتهم. فكيف أعثر على كارلا؟

شعرت بالإحباط، وكنت سأغادر، تاركاً الكمنجة في يد أحد الخدّام، حين أتتني فكرة. أسندت الآلة إلى خدّي وبدأت العزف بشجن وأسى.

تجمّع بضعة أشخاص وهم يتهامسون. من يختبئ تحت القناع؟

حين توقّفت عن العزف، سألتني امرأة كانت ما تزال

Twitter: @ketab_n

خاضعة لتأثيره السّاحر:

– من حضرتك؟ لم أسمع يوماً موسيقى بهذا الجمال.

– وهل حضرتك كارلا فيرنزي؟

ضحكت الفتاة.

– من يعلم؟ قالت.

واختفت في دوّامة الحفل.

– أتبحث عن كارلا؟ همس لي مخلوق نصفه جسم رجل ونصفه الآخر جسم طائر، كان يستمع إلى حوارنا.

– نعم. يجب أن أسلّمها هذه الكمنجة من والدها.

– ستجدها في غرفتها، قال لي حامل القناع وهو يشير إلى الدرج الضخم.

– هي ليست في الحفلة؟

– كارلا؟ كلّا. هذا سيرهق صوتها كثيراً. فهي ستغنّي مساء الغد في مسرح الفينيس.

– أتقصد أنّها ستظلّ في غرفتها بينما المدينة تبتهج، فقط لأجل الحفاظ على صوتها؟

بدا أنّ القناع كان، من وراء منقار النسر، يضحك من جهلي.

– يبدو أنّك لم تسمع يوماً البريما دونا[1] تغنّي!

(1) المغنيّة الرئيسيّة في عمل أوبراليّ (م. م.)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(34)

تركتُ الصالونات واندفعتُ باتّجاه الدرج.

لاحظت باباً، في الطابق الأوّل، مفتوحاً بشكل جزئيّ على غرفة مضاءة بضوء خافت. دخلت دون أن أحدث ضجّة.

كانت كارلا جالسة على مقعد عريض، شبه غافية. لم تكن تضع أحد الأقنعة الغريبة التي قابلتُها منذ لحظات. لم تكن نائمة تماماً فقد لاحظت وجودي لحظة دخولي الغرفة. وما إن رفعت عينيها ناحيتي، حتّى سحرني جمالها. كانتا سوداوين جدّاً، بعمق لا قرار له، ومتّقدتين بحدّة. شعرها أسود أيضاً. بخلاف بشرتها البيضاء. وكانت ترتدي فستاناً من المخمل الأسود، يتماوج بطيّاته حتّى الأرض.

رمقتني بنظرة فيها شيء من البرود، كما لو أنّها تسألني عن سبب وجودي في الغرفة.

فتحتُ فمي وسمعتُني أقول:

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- آنستي، هذه هي الكمنجة التي أوصى عليها والدك من أجلك. هي هديّة عيد ميلادك. أصرّ على أن أسلّمها لك باليد.

بدا انفراج على أساريرها.

- كمنجة؟ يا لها من فكرة رقيقة! ظننته نسي عيد ميلادي.

ما إن سمعت صوتها، حتّى أدركت أنني أقف أمام المرأة التي سكنت أحلامي منذ سنوات، وتمنّيت لأجلها الموت.

دنوت من كارلا، وأخرجت الكمنجة من صندوقها وقدّمتها لها.

أضافت:

- لطفٌ منك أن تحضرها لي.

أسندت الكمنجة على خدّها وسألتْ:

- هل أستطيع أن أجرّبها على الفور؟

- حبّذا!

ناولتها القوس وبدأت العزف. كان عزفها مبتدئاً جدّاً، غير أنّ حركتها لا تخلو من الأناقة.

- صوت هذه الآلة مدهش، قالت وهي تخنق الأوتار. لا يسعني إلّا أن أهنّئك على عملك. لكنك على الأرجح وجدت عزفي سيّئاً بشكل مهول؟

بالتأكيد هذه هي الحقيقة، ولكن لم يكن لذلك أيّة أهمية في نظري.

Twitter: @ketab_n

- هذه الكمنجة هي حقّاً مصنوعة لأجلك. ستعتادين عليه بسرعة، أنا متأكّد من ذلك.

عزفت أيضاً لبضع لحظات، قبل أن تضع القوس والآلة على طاولة صغيرة، بالقرب من رقعة شطرنج خشبية مشغولة برهافة.

- تحفة رائعة، قلت وأنا أتأمّل الرقعة.

فابتسمتْ.

- أتجيد لعبة الشطرنج؟ سألتني.

- لا للأسف.

- بإمكاني أن أعلّمك، إذا رغبت.

- إذا أردت. وبالمقابل، سأعلّمك العزف على الكمنجة.

أطلقت ضحكة قصيرة، وهي تدير رأسها ناحيتي. عيناها السوداوان المتسائلتان بعمق غاصتا في عينيّ. كانت أصوات الحفلة تتسرّب من شقّ الباب.

- ألا يقلق راحتكِ كلّ هذا الضجيج؟

- لا، أجابت. أحبّ هذه الموسيقى، وهذا الغناء، وهذه الضحكات. ذلك يفرحني.

- ألا تضجرين، هنا، وحدك، فيما المنزل بأكمله يبتهج؟

- لا تبالِ، هذا المساء يجب أن أرتاح. وسأعوّض لاحقاً ما فاتني! فالكرنفال ما زال في البداية.

Twitter: @ketab_n

- هو صوتك الذي تحمينه بهذه الطريقة؟
- هل أبي من أخبرك أنّي أغنّي؟
- نعم. أسرّ لي أنّ لديك صوتاً لا ينُسى. صوت ذهبيّ.
- إنه يبالغ دائماً! لديّ في الواقع موهبة سيبرانو متواضعة، ومعظم غنائي من أجل الأصدقاء، أغنّي عندهم، أو هنا، في قصر فيرنزي. ولكن مساء الغد، سأغني في مسرح الفينيس، بمناسبة عيد ميلادي. حجزه أبي لهذه المناسبة. هل ستأتي لتسمعني؟

لزمتُ الصمت طويلاً، لأطيل سعادتي بتأمّلها.

- آنستي، ينبغي الاعتراف أنّني كلّي فضول وشوق لسماعك. كوني على ثقة من أنّني سأكون حاضراً في الفينيس.
- إذن، سأراكَ مساء الغد.
- سأراكِ غداً.

واستأذنت بالانصراف، وغادرت الغرفة وأنا أعود للخلف ثمّ نزلت الدرج، بذهن مشوّش.

في الصالونات، كانت الحفلة في ذروة اشتعالها. غير أنّ قلبي كان في مكان آخر.

Twitter: @ketab_n

(35)

لم يغمض لي جفن طوال الليل، لفرط ما شغلت ذكرى هذه المرأة فكري. كانت كارلا في داخلي حاضرة وحقيقيّة حتّى أنّي لم أتمكّن حتّى من أسْرها داخل حلم.

في الصباح، ذهبت إليها. كانَ الجندول يترنّح على سطح الماء، وأنا جالس في داخله أترقّب أيّ علامة حيّة تظهر على نافذة الطابق الأوّل التي كان مصراعاها لا يزالان مغلقين.

كانت القناة الكبيرة تغفو في برودة الفجر، متوّجة بضباب خفيف. ونَواتيُّ الجندولات، وهم ينقلون بضائعهم إلى الأسواق، يمرّون إلى جانبي صامتين، وينزلقون على الماء كأطياف مقلقة، ثمّ يختفون في متاهة المدينة.

بقيت عيناي لفترة طويلة معلّقتين إلى النافذة. كنت عاشقاً كما يكون العشاق في هذا العمر، دون أيّة مبالاة بالوقت الذي يهرب.

لم أكن في حياتي كلّها سعيداً كما في ذلك الصباح، في ذلك

Twitter: @ketab_n

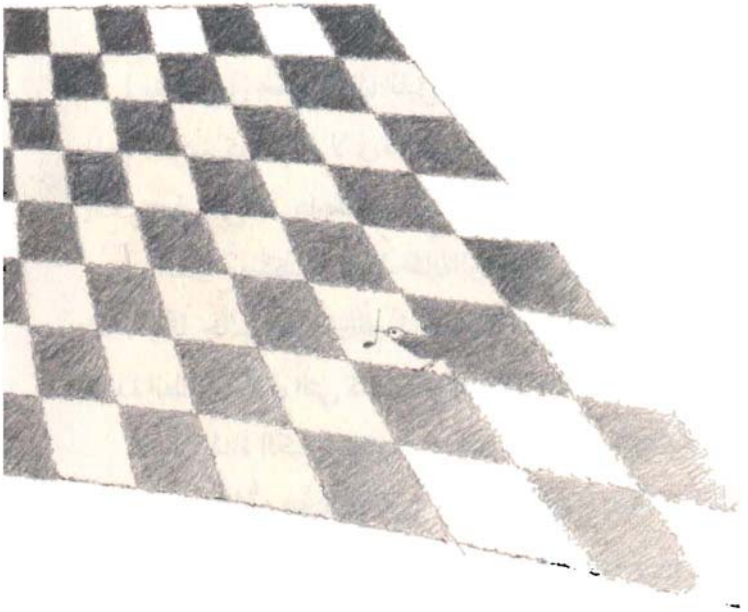

Twitter: @ketab_n

الانتظار السريّ، متشبّثاً باللحظة هذه بالضبط حيث لا شيء مهمّ سوى المحبوب. لم تكن يوماً حياتي، بالفعل، كثيفة كما في تلك اللحظات. لم أعد وحيداً.

رأتني كارلا، حين فتحت أخيراً مصراعَي النافذة. بدا أنّها فوجئت لرؤيتي أمام منزلها.

– ماذا تفعل هنا؟ صرختْ.

لأداري إحراجي، اضطررت إلى الكذب:

– أظنّ أنّني نسيت عندك البارحة صندوقي.

بعد لحظات، ظهرت على عتبة الباب.

– أتقول: صندوق؟ من أيّ نوع؟

– صندوق الكمنجة التي أحضرتها لك.

– آه، أعرف أين هو.

كانت ستدخل البيت لإحضاره، حين أمسكت بها من ذراعها.

– أبقيه، قلت. سيكون مفيداً لك أكثر ممّا لي! فلديّ صناديق أخرى في كريمونا.

ابتسمتْ.

– بما أنك سخيّ لهذه الدرجة... انتظرني، سأعود.

اختفت للحظات، الوقت الكافي لتصعد إلى غرفتها، ورجعت حاملةً رقعة الشطرنج.

Twitter: @ketab_n

– هذه الرقعة لك. بدا لي أنّك أُعجبت بِقطَعها، البارحة، فلم يفت الأوان بعد كي تتعلّمها. وبذلك، نكون متعادلَين!

كنت أودّ لو أبوح لها بألف شيء. لكن لم أتمكن إلّا من أن أتمتم:

– كارلا... أتمنّى أن أقول لك: أنّك...

وضعت إصبعها على فمي.

– لا تقل شيئاً، أرجوك. خذ هذه وامضِ. وسنلتقي هذا المساء في المسرح.

ثمّ اختفت وهي تضحك. وهبط الضباب مرّة أخرى على البندقية وبحيرتها.

Twitter: @ketab_n

(36)

الحياة مسرح لا يقدم إلّا عرضاً واحداً.

ذاك المساء، كان صوت كارلا فيرنزي هو الأصفى والأكثر إلهيّةً بين أصوات البشر. كان كصوت أحلامي.

اجتمعت البندقية بأسرها في الفينيس لتحصل على امتياز سماع هذا الصوت. كانت الدعوة عامّة شريطة أن يرتدي الحضور أقنعة.

تكدّست الناس، في كلّ زاوية من الشرفات حتّى الأوركسترا، يثرثرون، ويغنّون، بفوضى عارمة أحياناً. لم يكن الكلام إلّا عن كارلا.

- يقولون إنّ لديها أجمل صوت في العالم!

بعد مدّة وجيزة أُطفئت الأضواء وخيّم الصمت. رُفعت الستارة. وعزفت الأوركسترا الافتتاحية ثمّ بدأت الأوبرا.

بالتتابع غنّى بعض المغنين، وبنجاحات متفاوتة. وما إن انتهى الفصل الأوّل حتّى أخذ الجمهور بالصراخ:

Twitter: @ketab_n

- بريما دونا! بريما دونا!

كنّا ننتظر كارلا. لم يكن الجميع هنا إلّا من أجلها.

كان دورها سيبدأ في الفصل الثاني. حين دخلت خشبة المسرح، سرت الوشوشات عبر القاعة.

- ها هي!

- إنّها هي! كارلا فيرنزي!

كان التوتّر والإثارة في ذروتهما.

تقدّمت كارلا، أثيريّة في الضوء، وببطءٍ بدأ غناؤها يعلو. وسرعان ما بدا التأثّر واضحاً على كلّ الوجوه. ملأ صوت هذه الشابة المسرح بأكمله.

وفي نهاية اللّحن، صعدتْ في طبقات الصوت إلى هذا العلوّ، واحتفظتْ بالطبقة لفترة طويلة، بحيث شعرت بدمي يتجمّد.

التقط الحشد أنفاسه، للحظة. ثمّ ساد صمت ثقيل، كما لو أنّه خدر غريب. وسمعت وشوشة تعليقات خجولة، تبعها هرج ومرج من الرضا.

وما لبث أن صار ذلك هياجاً من الصراخ والهتافات، وضجّ المسرح بعاصفة من التصفيق.

- «برافو»!

- تحيا البريما دونا!

عادت كارلا وغنّت مرّة أخرى. فعاد السِّحر من جديد.

Twitter: @ketab_n

وفي النهاية، ركضتُ إلى مقصورتها.

ولمّا رأتني وخمّنتْ أنّني سأتكلّم، لم تترك لي الوقت لذلك:

- اسكت، أرجوك. لا تقل أيّ شيء، أبداً. لا تتكلّم أبداً عن صوتي.

كنت كالآخرين مفتوناً وهي أدركت ذلك.

- ألم أفشل في الفقرات الجهيرة؟ ربّما كنت أستطيع الاحتفاظ بالطبقة لبضع لحظات أخرى؟

- كان غناؤك عظيماً! يا له من نجاح!

- أتعرف أنّ أحد عازفي الكمنجة في الأوركسترا كان يعزف بكمنجتك وأنّه كان مذهولاً بجودة عملك؟

شكرتها على الإطراء وتمتمت بضع كلمات غير مسموعة.

وفيما هي تمشّط شعرها من جديد، التفتت صوبي:

- احتفالاً بهذا النجاح، سأغني مرّة أخرى هذا المساء. هل تودّ الانضمام إلينا؟

لم أعرف بما أجيبها.

- اطمئنّ، ستكون حفلة بلا رسميّات. لن أدعو إلّا بعض الأصدقاء، ببساطة.

- سأكون مسروراً. هذه آخر ليلة لي في البندقية ولا شيء يمكن أن يمتّعني أكثر من إمضائها بصحبتك.

- آه حسناً اتّفقنا. عليك أن تكون في منزلي عند الثانية عشرة

Twitter: @ketab_n

ليلاً. سأنتظرك.

ابتسمت وأدارت رأسها لتتأمّل نفسها في المرآة. طُرِق الباب.

خلال لحظات قصيرة تمّ احتلال المقصورة واختفت كارلا بين حشد من المعجبين بها.

انسحبتُ من وسط هذا التنافر الصارخ للأصوات.

وفيما أغادر المسرح، كنت منشطراً بين سعادة أن أعود لرؤيتها، وتعاسة أنّي سأتركها للأبد.

Twitter: @ketab_n

(37)

حين دقّت الساعة منتصف الليل، طرقت بابها، وكنت مدركاً أنّ كارلا لن تكون لي يوماً، أنّها ليست إلاّ حلماً لا يمكن الوصول إليه. أنا لم أكن أكثر من صانع كمنجات متواضع وهي ابنة كونت البندقية. لم أكن أكثر من حرفيّ مغمور يعمل في عتمة ورشته، بينما البندقية بأسرها كانت تهلّل لها في الفينيس. بحقّ الجحيم، لماذا كان عليّ أن أقابلها وأقع في حبّها؟

عرفني الخادم وفتح لي.

- الآنسة تنتظرك، قال لي.

دخلت، وسمعت، وأنا أنزع معطفي، ضحكات آتية من الصالون.

تقدّمت بخطوات صامتة.

حين رأيتها، كانت ممدّدة جزئيّاً على أريكة، إحدى ساقيها مطويّة والأخرى ممدودة على وسادة، وصدرها معتدل باستقامة، تضع يداً على ذراع الكرسي بينما اليد الأخرى تداعب

Twitter: @ketab_n

بنعومةٍ شعرها المتوهّج. كان يقف حولها ستّة شبّان مبهورين يمتصّون كلماتها مثل الرحيق، وحين لوحظ وجودي توقّفت أحاديثهم.

– أيها السادة، ها هو إراسموس. ها هو صانع الكمنجات الذي أخبرتكم عنه، قالت كارلا.

– في خدمتك، آنستي.

أنهت التقديم، وشعرت أنّ نبلاء البندقية ما كانوا يعبأون بصانع كمنجات متواضع، وإن يكن خريج أهمّ مدرسة في كريمونا.

لم أكد أنتهي من تحيّتهم حتّى بادرني أحدهم بالهجوم:

– تدّعي كارلا أنّك، بالرغم من عمرك الصغير، أحد أمهر صنّاع الكمنجات في جيلك، وأنّ الكمنجة التي صنعتها لها هي آلة قيّمة رفيعة المستوى. هل عليّ أن أفهم أنّك تعلمت فنّك على الكبير أنطونيو ستراديفاري؟

– ليس بالضبط عليه هو نفسه، غير أنّني تدرّبت في محترَفه. كنت تلميذاً لابنه فرانشسكو.

– إذن، قال واحد آخر، كما توقّعت. هذا التصميم يشبه أحد النماذج التي رأيتها في كريمونا. وبالتالي فأنت مدين بكلّ شيء على ما أظنّ لموهبة معلّميك. فأنت على الأرجح اكتفيت بأن تقلّدهم؟

Twitter: @ketab_n

استدرتُ صوب هذا الوقح، ونظرتُ إليه بازدراء.

- ليكن في علمك أنّ صناعة الكمنجات تتطلّب مواهب أخرى إضافة إلى مواهب المُقلّد. فلكلّ كمنجة رنينها الخاصّ، فرادتها، التي لا يُحصَل عليها إلّا بفضل صانعها. لعلمك أيضاً، حتّى لو كانت الكمنجات تشبه بعضها بعضاً، فإنّ كلّ كمنجة هي آلة مفردة.

- اهدؤوا أيها السادة، تدخّلت كارلا، وبدت مستمتعة بهذه المشادّة البسيطة وأضافت: متى سيتوقّف الرجال عن إثارة الشجار والانشغال بكبريائهم؟

أصبح الصمت خانقاً.

- كارلا، قال أحدهم، ما رأيك لو تغنّين لنا لحناً؟

- نعم، غنّي لنا قليلاً.

جعلت الجميع يطلب منها ذلك، وأمام إصرارنا، ولقناعتها بالحاجة إلى تلطيف الأجواء، استسلمت في النهاية لإرادتنا.

- إذن، سأغنّي مقطعاً، فما أخشاه هو أن لا يكون قد بقي لي سوى خيط رفيع من الصوت.

ثمّ أطبقت عينيها، وأخذت نفساً عميقاً، وباعدت قليلاً بين شفتيها، ثمّ تدفّق الغناء عذباً من حنجرتها.

صوتها! رنين صوتها! كنت حقّاً مجنوناً بذلك الصوت. كنت سكران بتلك الموسيقى، وكان كياني كلّه متأثّراً بذلك الصوت

Twitter: @ketab_n

السحريّ الذي كان يمنحني هذا القدر من السعادة.

بعدما انتهى الغناء، علا التصفيق.

- حسناً، قال الوقح وهو يخاطبني، أكيدٌ أنّ مثل هذا صوت لن تستطيع مضاهاته أيّة آلة.

فأجبت، مغتاظاً:

- أنت مخطئ. الكمنجة هي الآلة الأكثر قرباً من صوت المرأة. وهي بالمناسبة تغطّي جميع الأصوات، من السوبرانو حتّى الكونترالتو[1]. وستجد أيضاً تطابقاً مربكاً بين جسدَي كلّ من المرأة والكمنجة.

- أتقصد أنّ المرأة والكمنجة هما من تكوينٍ واحد؟

- أنا متأكّد من ذلك.

- صحيحٌ ذلك، أقرّ الشابّ. إنّ من الإنصاف أن نعترف بتشابهات عجيبة بينهما. ولكنّ افتراض أنّ من الجائز إعادة إنتاج صوت بشريّ - وأيّ صوت!- من خلال قطعة خشب، هذا يتطلّب خطوة إضافيّة لا أحسب أنّك ستقوم بها؟

- أنا لا أفترض شيئاً، قلت بنبرة جافّة، أنا أؤكّد!

- إنك تفقد صوابك، أيها السيّد صانع الكمنجات.

---

(1) Contralto : هو نوع من الأصوات الغنائية، ويعتبر أكثر الأصوات النسائية عمقاً، إذ يقع بين التينور والميزو–سوبرانو (م. م.).

Twitter: @ketab_n

فهمت كارلا أنّ الحديث قد يزداد احتداماً، فقرّرت التدخّل. ثبّتت عينيها الواسعتين في عينيّ، وقالت:

- إذن هل تستطيع، يا عزيزي إراسموس، أن تبرهن على قولك وتعيد إنتاج رنين صوتي بإحدى كمنجاتك؟

فهم الشاب أنّ كارلا تقف إلى جانبه، فأطلق في اتّجاهي ضحكة.

خيّم صمت طويل ومخيف شعرت أثناءه أن كلّ النظرات كانت موجّهة إليّ.

- إذن، أجبْ، يا إراسموس، أرجوك، أصرّت الشابة.

ربّما بالغت بإبائي، ولكن لم يكن عندي أسلوب آخر لأعلن عن حبّي لهذه المرأة فقلت هذا الشيء الجنونيّ:

- كارلا، سأبتكر أجمل كمنجة في العالم. من أجلك فقط. وسيكون لها صوتك.

لم أكن أعرف أنّني، برغبتي هذه، سأخسرها إلى الأبد وأخسر نفسي.

Twitter: @ketab_n

(38)

عدت إلى كريمونا، وبدأت العمل على الفور.

لم أكن حملتُ معي عن كارلا إلّا ذكرى كلٍّ من خامة صوتها وإهابها الرّهيف. من خلال هذه الذكرى، وضعت نفسي أمام تحدّ يتمثّل في إنجاز كمنجة فريدة.

أرسلت في طلب الشجرة الأكثر نبلاً، شجرة تنوب من منطقة التيرول لأنحت منها بطن الكمنجة وصندوق الصوت وعارضة التناغم. وأحضرت أمتن أنواع القيقب، من بوهيميا، لأقصَّ منه الظهر والجبائر والجسر والزّند. أما لوحة الأصابع ومشط الكمنجة ورأس الزّند فقد نحتُّها من أقسى خشب أبنوس. وأخيراً، وبعد عدّة شهور من العمل، وبعد النجاح في تركيب القطع، اخترت برنيقاً مركّباً من موادّ نباتية.

انتظرتُ أسابيع طويلة قبل أن أجرؤ على العزف عليها. وذات صباح، بقلق، أخرجت منها أوّل نغمة. كانت منفّرة.

فهمت على الفور أنني أخطأت. لم يكن رنين الكمنجة يشبه

Twitter: @ketab_n

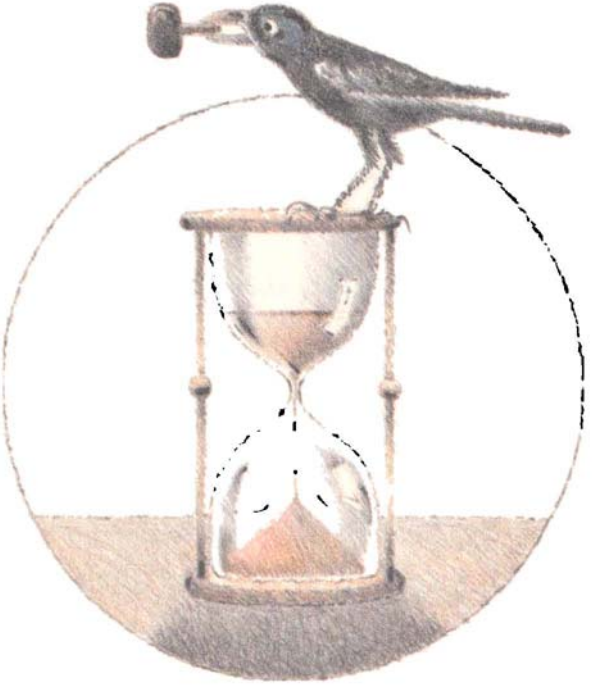

Twitter: @ketab_n

صوت كارلا بشيء.

ومن شدة الغضب، ألقيت بها أرضاً، حيث تحطّمت وسط ضجيج الأوتار وانكسار الخشب.

وآنئذٍ تجرّأت على هذا التحدّي الجنونيّ، الذي ما زلت حتّى اليوم نادماً عليه:

- أقسم أنّني سأبدأ من جديد مرّة تلو أخرى، حتّى أعيد إنتاج صوتها في كمنجة تكون بسواد عينيها.

وفي تلك اللحظة بالذّات لمعت فكرة الكمنجة السّوداء.

Twitter: @ketab_n

(39)

كنت أقف أمام طاولة عملي، حين برقت الفكرة في ذهني.

لماذا لا أصَمّم كمنجة مطابقة لكارلا بكلّ التفاصيل؟ إذا أردت إعادة إنتاج رنين صوتها، أفلا ينبغي أن أستلهم أوّلاً جسدها؟ كان يلزمني، وكنت مقتنعاً بذلك، تصنيع كمنجة سوداء بسواد عينيها وشعرها.

تذكّرت أن لديّ في مكتبة المحترَف بحثاً صغيراً مكتوباً بيد أنطونيو ستراديفاري، يعرض فيه صناعة كمنجة يدخل خشب الأبنوس في جزء كبير منها. عثرتُ عليه، واكتشفت، بسعادة، أنّ البحث يضمّ علاوة على ذلك وصفة سرّية لتركيب برنيق أسود لم أكن قد استخدمته يوماً. عدت واستأنفت العمل، مدعوماً بهذه المعلومات القيّمة.

لم يكن تصنيع جسم الآلة مسألة سهلة، لا سيّما صندوق الرنين. قساوة خشب الأبنوس غير معقولة، وتتطلّب طاقة عالية ودقّة كاملة. التركيب أيضاً لم يجرِ بيسر، ولكنّني تمكّنت

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

من إنجازه بصبر كبير. وأخيراً أتت مرحلة البرنقة، فأعطيتها عناية فائقة وزمناً طويلاً، استغرق عدّة أسابيع.

بعد شهرين، ولأوّل مرّة في حياتي، كان بحوزتي كمنجة سوداء رائعة.

وفي أحد المساءات العاصفة قرّرت أن أجرّبها.

في الخارج، كانت البروق تضيء السماء والريح تعصف. كانت طبقة البرنيق الأخيرة قد جفّت، وحان موعد اختبار رنين الآلة.

أخذت الكمنجة بين يديّ، وبرقّةٍ داعبت برنيقها. بدأ الخشب يغنّي، تحت يدي. أدركت أنّني قد حصلت على آلة غير عاديّة. حملت القوس، وشرعت بالعزف.

كالريشة التي تحطّ على صفحة الماء، انزلق القوس على الأوتار. أوّل رنين علا: صوت امرأة. صوت امرأة سوبرانو.

بقيت مشدوهاً للحظات، مرتجفاً من السعادة، مدركاً أنّني قد أنجزت حلمي الأعظم.

تلك الليلة، عزفت على الكمنجة السّوداء كما لم أعزف يوماً على أيّة آلة. كنت أشعر أنني أحتضن جسد كارلا، بين ذراعيّ.

Twitter: @ketab_n

(40)

بعد بضعة أيّام، رجعت إلى البندقية. كان ذلك في الشتاء. وقد غمرت المياه المرتفعة المدينة، وبلغ مستواها أكثر من متر في بعض الشوارع الصغيرة لصاحبة الجلالة[1]. كنت غير مبالٍ بهذا المشهد الحزين. لم أكن متلهّفاً إلّا لشيء واحد: أن أُسمع كارلا صوت الكمنجة السّوداء.

بدا قصر الفيرنزي يغرق ببطء في ماء البحيرة. ممّا اضطرّني إلى ربط زورقي إلى حديد النافذة، لأنّ الرصيف كان مغموراً بالمياه. وقد حملت الموجات طحالب بحرية خضراء حتّى درجات المدخل.

ليس الخادم هو من فتح لي الباب، بل الكونت فيرنزي بنفسه. كانت دهشتي كبيرة، إذ بدا غائر الوجه، وعيناه صارتا كابيتين، ولون بشرته أقرب إلى الشمع. بدا محطّماً بصورة مرعبة

(1) Sérénissime (بالإيطالية: Serenissima) تعني «صاحبة الجلالة» وهو أحد ألقاب جمهوريّة البندقية التي استمرّت قائمة من 697 حتّى 1797 (م. م.).

Twitter: @ketab_n

تحت وطأة حزن مهول.

- آه، السيّد إيراسموس، قال عندما رآني، السماء هي من أرسلتك. ربّما تستطيع مساعدتنا.

- ماذا يحدث؟ هل أنت مريض؟

أخرج منديلاً من جيبه ومسح جبينه.

- لست أنا. صحّتي لا بأس بها.

ثمّ أطبق فمه جزئيّاً وأخبرني:

- الأمر يخصّ كارلا.

- كارلا؟ ماذا حدث لها؟

- آه، يا ليتني أعرف. وقعت فجأةً في المرض. حدث هذا منذ عشرة أيّام وهي الآن طريحة الفراش.

- هل أستطيع رؤيتها؟

ودون أن انتظر جوابه، دخلت الدهليز، واندفعت باتجاه الدرج متسلّقاً درجاته أربعاً أربعاً. دفعت باب غرفتها فوجدت الشابّة ممدّدة على السرير، شاحبة الوجه، مريضة. كانت تبدو في أسوأ حال. اقتربت منها على رؤوس أصابعي.

- كارلا، قلت وأنا ألتقط أنفاسي، ماذا يحدث لك؟

أدارت ببطء رأسها نحوي وفهمت من تعبير عينيها إلى أي حدّ كانت تتألّم.

- انظري، أحضرت لك الكمنجة التي وعدتك بها. اسمعي

Twitter: @ketab_n

هذا الرنين! اسمعي هذه الموسيقى!

تركتُ القوس ينساب ببساطة على الوتر، ومباشرةً ظهر الرعب على وجهها. وبإيماءةٍ جمّدت ذراعي، كأنها ترجوني بنظرتها.

- مكروه كبير ما أصابها حتّى الآن، قال الكونت الذي لحقني أخيراً. ابنتي لديها حمّى متواصلة منذ أن أغمي عليها، والأطباء عجزوا عن معرفة سبب هذا المرض. مضى أسبوع! وطفلتي المسكينة على هذا الحال، تصارع بين الحياة والموت.

تأملت كارلا، ممدّدة على السرير، وجهها يطفح بالتعاسة.

- والأسوأ، أضاف فيرنزي، أنّه منذ ذلك المساء الذي مرضتْ فيه، فقدتْ صوتها!

أحسستُ بالدوار، وشعرتُ أنّ الأرضَ تهرب تحت قدميّ، واضطررتُ إلى أن أستند إلى الباب كي لا أسقط أرضاً.

- ماذا حدث لك؟ سألني فيرنزي.

- لا شيء، لا شيء. ضعف بسيط.

نظرت آخر مرّة إلى وجه كارلا ورأيتها تبكي. خرجت من الغرفة وأنا أترنّح وغادرت القصر.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(41)

لوقت طويل لم يتلفّظ جوان بكلمة.

شرب كأساً من الخمر وهو يحدّق في غور عينَي إراسموس، وعادا بعدها لاستئناف لعبة الشطرنج.

- وهل عدت لرؤيتها بعد ذلك اليوم؟

- كلّا!

- مع أنّك أقمت في البندقية من أجلها.

- نعم من أجلها. ولكن لم آتِ إلى البندقية مباشرةً. سافرتُ، كما أخبرتك سابقاً. رحلتُ من كريمونا إلى باريس، لأمارس فنّي وأكثر من ذلك لأحاول نسيان هذه القصة. وحين أدركت أنني لن أفلح يوماً في نسيانها، عدت إلى البندقية. لكن كان الأوان قد فات. فات من أجل كلّ شيء. كانت كارلا قد ماتت.

صمت إراسموس، وفهم جوان أنّ الرجل العجوز لن يقول المزيد.

Twitter: @ketab_n

في ذلك المساء خسر إراسموس في لعبة الشطرنج. خسر للمرّة الأولى.

وللمرّة الأولى أيضاً كان يتكلّم عن نفسه. للمرّة الأولى كان يتكلّم بشكل حقيقيّ.

عند أولى لمعات الفجر، حين كان الشوط منتهياً، سأل إراسموس جوان:

- هل تعرف ما هي رقعة الشطرنج السحريّة؟

- لا.

- هي الرقعة التي بفضلها لا تخسر أبداً. إلى أن تخونها. خذها، من الآن فصاعداً هي لك.

Twitter: @ketab_n

(42)

مضت أيّام الشتاء ببطء. ولم يعد الرجلان إلى ذكر كارلا.

في أحد مساءات شهر ديسمبر، لزم إراسموس الفراش، مصاباً بمرض غريب. وتملّكته الحمى.

في هذياناته نطق اسماً، وهو يلهث:

- كارلا... كارلا... كارلا...

ثلاث مرّات.

بقي جوان، إلى جانب سريره، صامتاً، معصور القلب.

في اليوم التالي، عجز الرجل العجوز عن النطق.

Twitter: @ketab_n

(43)

في صبيحة 1 يناير 1798، مات إراسموس أثناء نومه.

يوم دفنه، استُدعيت جوقة الصّغار. كان لدى أحدهم خامة صوت فريدة، مشحونة بالأسى، ولها نبرات ألمٍ وحدها أجمل كمنجات المعلم يمكن أن تؤدّيها. مع إراسموس التلميذ الجدير لأنطونيو ستراديفاري، كان يأفل سرّ أعظم الكمنجات في العالم.

بعد المراسيم في كنيسة سان زكريا، وُضع النعش في زورق أسود، وغادر جندول الجنازة مركز المدينة متّجهاً إلى مقبرة سان ميكيل. كان جوان في الموكب، يغمره شعورٌ بأنّه كان يشارك في تأبين نفسه.

كانت تمطر على البندقية، مطراً ناعماً، ومتواصلاً. لم يكن يُسمع غير وقع قطرات المطر على القناة الكبيرة، وتلاطم الماء يضرب حوافّ الزوارق، ومن حين لآخر عويل الريح بين شقوق الأحجار.

Twitter: @ketab_n

نزل موكب الجنازة على رصيف حديقة المقبرة، حيث دُفن النّعش في التراب. رمى عازف الكمنجة في قبر صانع الكمنجات حفنة من تراب أسود. رسم علامة الصليب، ثمّ غادر الجزيرة على عجل إلى البندقية دون أن يلتفت إلى الوراء.

Twitter: @ketab_n

(44)

حين صار جوان في محترَف إراسموس، بدأ يجوبه قلِقاً، متأملّاً كلّ شيء في عرين المعلّم. ثمّ، بقلب حزين، جلس أمام رقعة الشطرنج، وبحركة مفعمة بالمرارة، أطاح بقطعها أرضاً.

عندئذ سمع صوتاً غريباً. موسيقى لا أحد يعرف من أين تأتي.

اقترب جوان ببطء من الزاوية المعتمة التي بدت الموسيقى تخرج منها. أشعل شمعة وتقدّم على مهلٍ، صوب اللّغز. كان الصوت قادماً من الكمنجة السّوداء.

بحذر شديد، أمسك جوان بالآلة، وتأمّلها، ثمّ أخذ القوس، وبدأ وهو مغمض العينين بالعزف. أجفلته النغمة الأولى. ومهما بدا ذلك غريباً، بات موقناً من أنّ هذا الكمنجة تمتلك القدرة على إصابة من يعزف عليها بالجنون.

رغم ذلك عزف مرّة أخرى أيضاً، على سبيل التحدّي، ثمّ بدأ يتراجع إلى الخلف وقد تملّكه غضب شديد، ورمى الكمنجة

Twitter: @ketab_n

أرضاً.

انكسرت الآلة، وهي تلمس الأرض، وأطلقت صوتاً غريباً، كما لو أنّه صرخة امرأة.

شاعراً بالدّوار، خرج جوان إلى الزّقاق وركض بأقصى طاقته.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(45)

بعد بضعة أيّام، ترك جوان البندقية وعاد مع الجيش الفرنسيّ إلى باريس.

لم يعد قطّ إلى رؤية إيطاليا.

بقي جوان واحداً وثلاثين عاماً يؤلّف أوبراه اليتيمة. واحداً وثلاثين عاماً وهو يحاول أن يحرّر نفسه من صوتٍ، من حلمٍ، ويحاول نسيان قصة إراسموس والكمنجة السّوداء.

في غضون كلّ هذه السنين، لم يعد للعزف على الكمنجة.

وفي اليوم الذي وضع فيه آخر علامة لآخر نغمة في أوبراه، فهم أن كلّ عمله كان بلا طائل. فلن يقدر يوماً أن يغنّيه أحد مثل كارلا فيرنزي.

عندَئذ، وبنزوع غريب للعقل يدنو بالفعل من حافّة الجنون، أخذ الدفتر الذي كان، لفترة مديدة، يدوّن فيه نغماته ورماه في الموقد. في بضع لحظات، رأى مؤلَّفَ حياته يختفي بين ألسنة اللّهب.

Twitter: @ketab_n

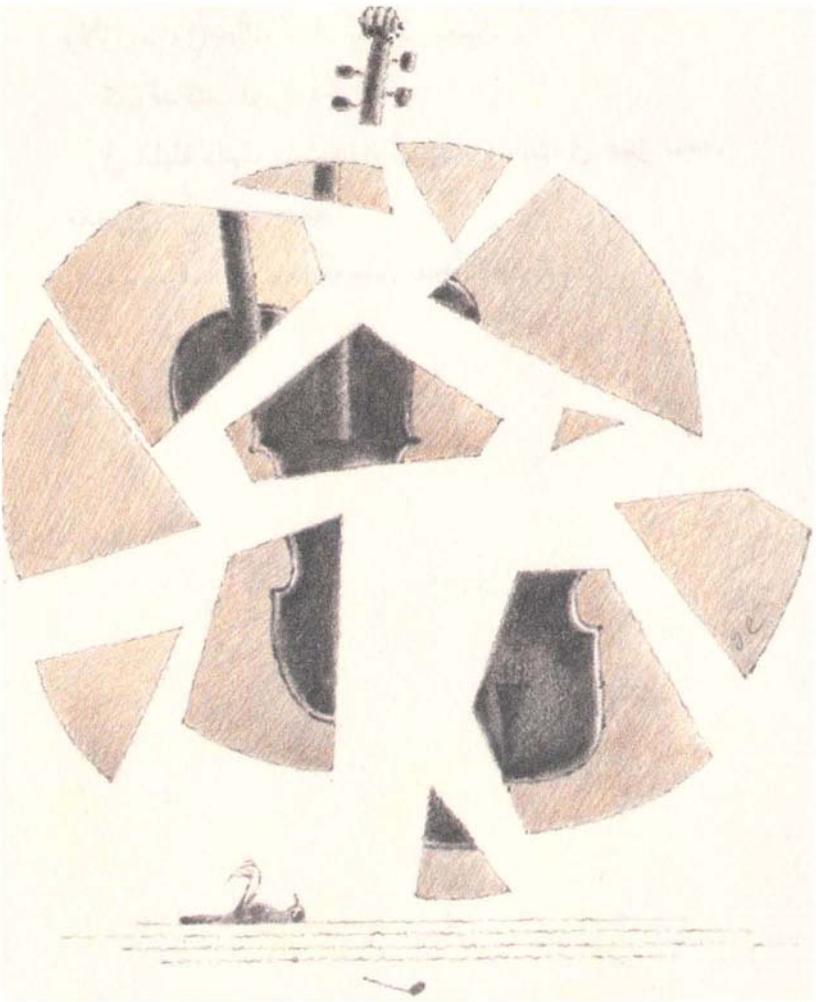

Twitter: @ketab_n

– ها قد انتهيتُ من هذه القصة، قال في نفسه.

ثمّ تمدّد على فراشه، متعبَ الجسد لكن بروحٍ صاحية، ولأوّل مرّة في حياته أدرك أنّه كان سعيداً.

كان قد كتب أوبراه الخرافية.

في الليلة ذاتها، مات دون أن يشعر، مات في عمق نومه، مغموراً بكلّ دفء حلمه.

ولم يعرف أحدٌ يوماً أنّه ملَكَ نفحةَ العَبقريّة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلّف:

ولد ماكسنس فرمين في ألبيرفيل في فرنسا عام 1968، وأمضى عدّة سنوات في تونس. حازت روايته الأولى «ثلج» عقب صدورها في 1999 على شهرة واسعة، ونشر بعدها عدّة روايات. ويعود الانتشار الواسع لأعماله إلى لغتها الشعريّة وأجوائها السحريّة المفعمة بروح المغامرة والعجائبيّة والبحث. وهو يفيد فيها من رحلاته المديدة، إذ هو عاشق للأسفار، فترى في «ثلج» اليابان في أواخر القرن التاسع عشر، وفي «النّحال» (2000) أفريقيا السوداء، وفي «أفيون» (2002) الصّين، وفي الرواية المترجمة هنا إيطاليا في عهد نابليون بونابارت، أمّا «ضريح النّجوم» (2007) فيسرد فيها فترة الاحتلال النّازيّ لبلده فرنسا.

نبذة عن المترجمَين:

- أيف كادوري أستاذة وإعلامية ومترجمة فرنسية، ولدت في 1967، حاصلة على ماجستير بالأدب الفرنسي المعاصر من جامعة نيس صوفيا أنتبوليس في مدينة نيس في فرنسا، وماجستير في ميدان السياسة الثقافية ونشر اللغة الفرنسية من الجامعة ذاتها. درّست اللغة الفرنسية للمغتربين في فرنسا، ومارست لمدّة ثماني سنوات تدريس اللغة الفرنسية في المعهد العالي للغات في جامعة دمشق والمركز الثقافي الفرنسي في دمشق. عملت كمقدّمة ومعدّة للبرامج في أكثر من إذاعة سورية ضمن خطة تعاون ثقافية فرنسية-سورية. وتقيم حالياً في مونبلييه الفرنسية.

- حازم عبيدو صحفيّ وكاتب سوري، ولد في 1973، خرّيج كلية الإعلام في جامعة دمشق، عمل في مجال التحرير الإعلامي في مؤسسة الأغا خان في سورية حتّى 2011، ونشر عدّة مقالات في صحف عربية ومواقع إلكترونية. له مجموعة شعرية صادرة عن دار كنعان 2009 بعنوان «تتناوبين على بريق المعدن».ف

الكمنجة السَّوداء

بقي جوان واحداً وثلاثين عاماً يؤلّف أوبراه اليتيمة. واحداً وثلاثين عاماً وهو يحاول أن يحرّر نفسه من صوتٍ، من حلم، ويحاول نسيان قصة إراسموس والكمنجة السَّوداء.
في غضون كلّ هذه السنين، لم يعد للعزف على الكمنجة.
وفي اليوم الذي وضع فيه آخر علامة لآخر نغمة في أوبراه، فهم أن كلّ عمله كان بلا طائل. فلن يقدر يوماً أن يغنّيه أحد مثل كارلا فيرنزي.
عندئذ، وبنزوع غريب للعقل يدنو بالفعل من حافّة الجنون، أخذ الدفتر الذي كان، لفترة مديدة، يدوّن فيه نغماته ورماه في الموقد. في بضع لحظات، رأى مؤلّف حياته يختفي بين ألسنة اللهب.
- ها قد انتهيتُ من هذه القصة، قال في نفسه.
ثمّ تمدّد على فراشه، متعبَ الجسد لكن بروحٍ صاحية، ولأوّل مرّة في حياته أدرك أنّه كان سعيداً.
كان قد كتب أوبراه الخرافية.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة

كلمة
KALIMA

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 174509